

نسيم نصر

من ذكريات معلم

بقلم نسيم نصر

* * *

في عام ١٩٢٥ كنت أتهيأ لاستبدل في خريفها كرسي المعلم بمقعد التلمذة في شتائها . وكان علي ان أواجه هذا التبدل السريع بما يستحقه من الاهتمام ، وليس عندي من العلم بشؤون المهمة التي سأضطلع بمسؤوليتها غير ما ارتسم في ذهني بالانطباع واثر في قلبي بالشعور ، ايام تلمذتي على معلم القرية ، قبل الحرب العالمية الاولى، وعلى معلم المدينة ، في مدرسة الفرير في طرابلس ، بعد ان القت الحرب اوزارها ، تلك التلمذة التي كان شعارها: « من علمني حرفا صرت له عبدا» . ولم اكد اباشر عملي التدريسي حتى ادركت ان عبوديتي لمدرستي تلميذا ، قد اخذت تتحول في ذاتي الى تمرد على أساليبها معلما . وذلك الادراك جاء نتيجة لخروج البلاد العربية عامة ، ولبنان خاصة ، من ظلمات الانحطاط التي اطبقت عليها جميعا بضع مئات من السنين . فكان علي ، وقد كنت واحدا من ابناء «اولئك الذين كانوا يدفعون الخراج وياكلون الكرباج» ويقولون : «فليحي راس السلطان» ! كان علي ان اعلم جيلا سيكون طليعة لردة فعل عنيفة شاملة ، وان اكون واحدا من اولئك الذين يرون ان تكون مهمة المعلم في اساسها ، تغذية نفوس لا حشو رؤوس . وكم من صعوبات كانت تعترض المعلم في هذه الطريق الجديدة !

فالرواسب الاجتماعية والتربوية ، ما تزال تحدث فعلها الرجعي الذميم ، والتلاميذ الذين بدات معهم عملي المدرسي عام ١٩٢٥ ، كانوا ينتسبون الى بيئات عائلية مختلفة ومستويات اجتماعية متباينة . ومن ذلك الخليط ، من الجيل الطالع ، كان علي وعلى امثالي ، ممن ارتجلتهم الظروف ليكونوا قادة في دروب المدرسة الحديثة ، ان ننشىء شبابا نفضوا عنهم غبار الجهل وكسروا اطواق العبودية .

لا ادري هل علمت تلاميذي اكثر مما علموني ، ام العكس هو الاصح ؟ الحق يقال : انني باشرت مهمة المعلم ، وعدتي لها ما قراته من حروف جامدة سوداء على صفحات باهتة بيضاء . ولم يطل بي زمن مزاولتها حتى اصبحت عدتي لها ما قراته في وجوه نضرة مقبلة على الحياة بدوافع الحياة نفسها . فاذا بي استطلع ، يوما بعد يوم ، ما غاب عني من الانسان الناشىء ، فأتعلم كيف اتعهد هذه النفوس الطريئة لتتقوى على مصاعب حياتها وتتمرس بمفاهيم وجودها .

بدات عملي المدرسي معلما في طرابلس ، في مدرسة خاصة طائفية ناشئة للروم الارثوذكس. فأقبلت فيها على العمل بجهد بكر وبذل كريم ، قياما بالواجب وكسبا لثقة تلاميذي. فالتلاميذ يسرون بضياع الوقت ، ولكنهم يغتابون مضيع وقتهم ، ويتندرون عليه بكل سخرية . ومسكين هو المعلم البخيل في العطاء او المعطي عن شح فكلاهما مخفق : هذا ببخله وذاك بقلة ما عنده . وما ان أمنت الى الناحية التدريسية وسيري فيها سيرا رضيت عنه ، نظرا لحداثة عهدي ، حتى شغلت بالي الناحية التربوية : فاذا تصرفت متأنيا متوددا لم استطع ان اضبط من تعود خشونة الوالد في بيت ابيه ، واذا اخذت بأساليب الشدة غايرت نفسي في ما تريد وافسدت على ربيب التربية المرنة حلاوة ما تذوق في المنزل الوالدي . وان انس لا انس والدا بلغ من تطرف ابنه في الخروج عن المسلك اللائق ، مبلغا اضطر الادارة الى توقيفه عن الدروس ثلاثة ايام ، فثار ذلك الاب وارعد وابرق ، ثم نقل ابنه الى مدرسة اجنبية تعد على الطالب انفاسه ، والمدرسة الاهلية التي غضب عليها لم تقطع عليه طريق الالتحاق بمدرسة اخرى. وهناك راق للاب ولابنه المدلل ما ينال الابن من شدة ! لماذا ؟ الجواب في باب الثقة المرتهنة للغريب ، والمحتجبة عن القريب عندنا !!

وفي تلك السنوات الاولى بعد عام ١٩١٨ كان على المدارس ، ولا سيما الاهلية منها ، ان تجمع في صفوفها متفاوتا من الاعمار ، فيلتقي في الصف الواحد ابن الثانية عشرة وابن الثامنة عشرة مثلا ، ويكون الاصغر سنا اقدر على استيعاب ما تعطيهما المدرسة . وهنا تنشأ عن راسب التأخر في التلمذة ، عقدة نفسية تشد على كبرياء صاحبها المتخلف عن رفاق له ادنى سنا منه ، فتؤدي تلك العقدة

الى مشاكل طلابية يجب ان تستدرك بكثير من الحيطة واللباقة والتوجيه ، لكي لا تنتهي الى ازمات يعمد فيها الاكبر سنا الى استعمال قدرته البدنية . ولذا نرى المدرسة الحديثة تشترط لكل صف سنا قانونية لا تتعداها ، وعلى المتخلفين ان يستدركوا امرهم بوجه خاص لا يتعرضون فيه الى قرس كبريائهم ولا الى استعمال قوتهم الجسدية .

ولاسباب خاصة تركت هذه المدرسة الارثوذكسية الناشئة الى مدرسة الفرير في طرابلس نفسها . وهناك تسنى لي ان ارى نفسي معلما تغذي هيبته على تلاميذه سلطة ناظر يسهر على الانضباط العام بحزم وشدة . فكأن المدرسة بصفوفها مجموعة من الفصائل العسكرية : كل منها بامرة معلم ، والجميع برعاية النظارة الضابطة الكل بقبضة لا تلين. غير ان هذا النظام ، الذي يضمن سيادة المعلم على طلابه ، وبالتالي يسيج شخصيته ، فيتمكن من العطاء المعرفي في جو هادىء مطمئن ، لم يلائم نظرتي الى الطالب الذي يجب ان نحرره من الاجواء الضاغطة ، ونساعده على ان نخلق فيه المواطنة المريدة لا المسوقة ، والمدركة مسؤولياتها لا الملزمة بها الزاما .

ولكن ذلك الناظر ، الذي كثيرا ما كان يبدو كأنه حاكم عسكري يعنيه الانضباط الصارم ، في كثير من التعصب لحرمته ، كان بعيد النظر في اطراح التعصب الطائفي ، فقبل تبادل الحل بين الكنيستين الشرقية والغربية ، بحوالي اربعين سنة ، عهد الي ، وانا الارثوذكسي ، بتدريس التعليم المسيحي في نصوصه الكاثوليكية يقينا منه بأن الجوهر واحد ، والاختلاف في العرض لا بد ان يزول .

وهكذا قيض لي ، بعد ان تتلمذت في معهد الفرير في طرابلس ، ان اتمرس فيه بصفة معلم ، فكانت هذه المدينة بالنسبة الي منشأ مزدوجا في التعلم والتعليم . وكم يحلو لي ، في هذا المقام من الكلام ، ان اروي تحية شعرية القيتها تصديرا لخطبة كانت لي من على احد منابرها ، وقد تجاوزت الاربعين من العمر ، قلت :

عهد الفتوة في فيحاء لبنان ... أيقظتك اليوم بالذكرى لتلقاني
حيا كعهدك في ثوب الصبا مرحا ... بين الخمائل في صحوات نيسان
استقبل الفجر بالميزاب طلعته ... أفق من النور في آفاق الوان
في نسمة من شذا الليمون حاملة ... ما يخجل الطيب من ورد وريحان
اما الاصائل كم غنيتها املا ... بكرا كعاطفتي في بكر انساني
تلك الاويقات ما مرت بخاطرتي ... الا انثنيت بها نشوان تحنان

* * *

في اواخر السنة المدرسية (٢٨ ـ ١٩٢٩) بدأت اشعر انني ذو ميل ذاتي لمزاولة مهنة التعليم ، على الرغم مما فيها من المشقة ، وما تتطلب من الدراية ، والمعرفة لقاء القليل من الاجر المادي لذلك رفضت عروضا لمراكز عمل في مرافق مختلفة من الاعمال المكتبية ، ولا سيما المصرفي منها . وكان اعتماد لقب استاذ ، لكل من يقوم بمهمة التدريس ، يشعر صاحبه بشيء من التخصيص بالمعرفة ان لم يكن التخصص فيها . ولم يكن هذا اللقب قد اصبحت حاله ، كما هي اليوم ، صفة لمن لا نجد له لقبا عند الحاجة الى المجاملة او اللياقة او الممازحة . لذلك اخذت اتحين الفرص للعثور على مركز شاغر ، في مدرسة خاصة ، استطيع فيها ان امارس شيئا من تجاربي التربوية ، التي كنت قد شفعتها ببعض المطالعات في علم التربية .

ولم يطل انتظاري ، فقد جاء طرابلس ، في اوائل حزيران سيادة المطران ابيفانيوس زائد ، متروبوليت حمص آنذاك ، ورئيس الكلية الارثوذكسية فيها ، وكان في حاجة الى استاذ ترجمة وتعريب ، بين الفرنسية والعربية ، فعرض حاجته على صديق له في طرابلس ، فهداه الي . وهكذا وجدت طريقي الى ما كنت انتظر .

واذا كانت طرابلس ، بالنسبة الي ، منشأ مزدوجا في التعلم والتعليم ، فقد كانت حمص مختبر حياة ونزهة خاطر .

اتيت هذه المدينة المضيافة ، يفتح ابناؤها لنزلائهم وضيوفهم قلوبهم قبل بيوتهم ، وانا اباشر المسؤولية الزوجية في اول عامها الاول ، فأتيح لي فيها ان اتعرف الى ناس اطياب النفوس ، وان اقضي من عمر الشباب ، او شباب العمر ست سنوات ، تبدو لي الان ، وكأنها باقية في ذاكرتي وخيالي ، بقاء العطر في ثنايا الورود الفواحة . وانه ليطيب لي ان استل من ثنايا ذلك الامس بعض خطوط وملامح من صور هذه المدينة الملقبة بـ «عروس الوعر» ، نسبة الى البادية الممتدة حولها ، كما عرفتها في آخر العقد الثالث من القرن العشرين .

لا انكر انني كنت احفظ عن حمص ، قبل مجيئي اليها ، عشرات من النكات القارسة ، التي تتهم الحمصيين في ذكائهم فتزعم انهم على جانب من الغباوة والسذاجة يتميزون بها تميزا مأثورا ، ولكن الحقيقة التي يجب ان تقال هي ان كثيرا من الحمصيين تغلب عليهم النكتة الجاحظية ، اي انهم يتظرفون برواية هذا النوع من الفكاهات ، ويتلطفون في تقديمها كشيء من طرائف المجالسة والمؤانسة . وفي هذا التظرف والتلطف ما ساعد على انتشار ما يتهمون به . وكم مرة شهدت سمرا عائليا جمع ، من هؤلاء المتظرفين الحمصيين ، من يتبارون في تبادل رواية النكات التي لم تعد ، في نظرهم ، غير مادة لملء الفراغ او لاحداث جو من المرح والضحك .

وكنت اعرف من الجغرافيا والتاريخ ان حمص مدينة العاصي ، اكبر انهار سورية ولبنان ، وانها مسقط رأس ايلا غابال الامبراطور الروماني في القرن الثالث للميلاد ، وقد فتحها العرب عام ٦٣٦ م ، وكان بطل معركتها خالد بن الوليد ، فعرفت باسمه . وفي ايام تفسخ الدولة العباسية ضمها سيف الدولة الى امارته

الحمدانية ، وتولى حكمها مباشرة ابو فراس الحمداني الشاعر ، اذ كانت تابعة لقاعدته منبج ، التي ذكرها كثيرا في شعره . ثم الحقت حمص بمملكة صلاح الدين الايوبي عام ١١٧٤ م .

في اول تشرين الاول عام ١٩٢٩ ، نزلت من حمص الحي المعروف بـ « بستان الديوان » القائمة فيه الكلية الارثوذكسية بفرعيها المنفصلين للبنين والبنات ، ويقوم الى جانب كلية البنين ناد تابع لها حديث البناء مجهز بمنبر فسيح ، والى جانب كلية البنات تقوم كنيسة الاربعين شهيدا . واول ما لفت نظري ، من مظاهر الحياة في حمص ، حظر المخالطة في المجتمعات والمرافقة في الشوارع بين الرجال والنساء . وكان على المراة ، ايا كان دينها ، ان تحتجب عندما تخرج من منزلها . كذلك استرعى انتباهي ان تكون المدينة يخترقها نهر كبير ، وان يؤمن فيها ماء الشفة للمنازل سقاؤون يطرقون الابواب ، منادين على ما ينقلون من الماء على ظهور بغالهم !! ولكن حركة النهضتين : الاجتماعية والعمرانية كانت تعمل على ازالة هذه المعالم التي تشد هذه المدينة الطيبة الى ظلمات من عصور الانحطاط ، التي عانى منها هذا الشرق العربي ظلما شديدا طويلا . فلم تمض على اقامتي في حمص سنتان حتى بدت ، وكأن بعثا من الحياة الحديثة دخل فيها ، فاذا بها مدينة ذات حدائق عامة تؤمها العائلات رجالا ونساء ترويحا عن النفس ، وذات شبكات من القساطل المائية تدخل كل البيوت .

ولعل افضل ما تميزت به حمص ، في اوائل الثلث الثاني من القرن العشرين ، انها اصبحت منهل المعرفة في قلب بقعة ، من شمال سورية ، واسعة تعيش عليها عشرات الالوف من السكان . لذلك كانت الكلية الارثوذكسية التي انتدبت للتدريس فيها صرحا من صروح النهضة العلمية الحديثة ، ضمت بين جدرانها مئات من الطلاب ذوي النفوس البكر المتميزة بالظمأ الى المعرفة وبحسن الانقياد الى النظام .

وهكذا اخذت ، في هذا المناخ التربوي الذي اتيح لي في حمص ، ازداد ثقة بان مهمة المعلم الناجح لا يقاس نجاحها بما استودع في تلاميذه من معرفة فحسب ، بل تقاس بما أحدث في نفوسهم من اثر فاعل في انسانهم ، وبما خلق فيما بينهم كطلاب ، وفيما بينه وبينهم كمعلم وطلاب ، من جو تتآلف فيه هذه المجموعة من النواشيء ، على هدي المعلم ، ليكون تفاهمها على مقاعد التلمذة قاعدة لتلاقيها على ميادين المستقبل .

واعتمادا على ما كان بيني وبين تلاميذي من ثقة ومحبة عهد الي ، بالاضافة الى ساعات العمل التدريسي ، ان اتولى رعاية المحفل الادبي العربي في الكلية ، على ان يمتد اهتمامنا الى شيء من المحاولة في التمثيل المسرحي. وكان القصد من هذه المحاولة التمثيلية ايجاد مناسبة ينفتح فيها الجو الطلابي لاشراك الاهل في تنمية شعور ابنائهم بالقدرة على دخول الحياة ، ممثلين ادوارهم الحقيقية فيها . فكانت اولى التمثيليات التي بذلنا لها جهدا كبيرا « الآباء والبنون » لرائد كبير من رواد النهضة الحديثة في الشرق العربي ، هو ميخائيل نعيمة . وقد تفضل فكان ، هو نفسه ، خطيب حفلة توزيع الشهادات. فجاءت هذه الرواية ، بما فيها من اهابة الى اطراح القديم البالي والاخذ بمفاهيم التطور التربوي ، ايذانا بما كان في نفوس الآباء والابناء الحمصيين من استعداد للاقبال على الحياة بما يفرضه التنشيء الحديث .

* * *

حمص كانت بالنسبة الي مختبر حياة ونزهة خاطر . ولكن هذا القول يجب ان يستوفي الدليل على صحته ، وها انذا محاول ان استعرض شيئا من حكايات حال جرت لي ، فتركت اثرا في مجرى حياتي العملية .

اول ما تجدر الاشارة اليه مكان اقامتي العائلي ، وهو جناح من بناء في حي «بستان الديوان» كان يشغل الجناح الثاني منه استاذ الادب الفرنسي في الكلية التي جئت حمص لاعمل فيها استاذا للترجمة . وبحكم الجوار والزمالة نشأت في ما بيننا صداقة ما لبثت ان توثقت عراها ، فالاستاذ الجار رجل اجنبي ، ولكنه من اولئك الذين تركوا بلادهم الى غير رجعة ، فهو اذن بحاجة الى صداقة حميمة تعوض عليه بعض وحشة الاهل . وقد دخل البلاد السورية عام ١٩٢٢ ، ودرس في دمشق ، قبل حمص ، التي انتقل اليها عام ١٩٢٨ حاملا الجنسية السورية .

هذا الاجنبي الاصل خلوق ودود ، عالي الثقافة ، كبير النفس ، يحسن الكلام ببضع لغات ، يتقن منها اتقانا رفيعا الروسية والفرنسية . ولم تكن اعمالنا المدرسية وحدها التي كانت تجمعنا ، فلقد اكتشفت ، من مخالطته ايام العطل المدرسية ، انه موسوعة تاريخية ، ولا سيما في تاريخ سورية ولبنان . وهكذا تحولت عطلاتناالاسبوعية الى رحلات صيد بالمعنيين : صيد الطرائد الكثيرة ، على انواعها ، وصيد المعلومات التاريخية نستنطق لها آثارها في اماكنها . واذا كنت قبل تعرفي الى هذا الزميل ذا معرفة بتاريخ بلادي في كتب تاريخنا ، فلقد اثارت في صحبته شوقا ملحا الى استطلاع آثارها ، مستفيدا من معرفته بالكثير من دقائق تاريخنا القديم .

ولقد كانت بحيرة حمص المعروفة محليا بـ « بحيرة قطيني » وجوانبها مثار حديث تاريخي اذكر منه قليلا على سبيل المثال :

اعرف ان قادش او قدس مجموعة انقاض تعرف بـ «تل نبي مند» قائمة الى جهة قرية القصير ، قرب بحيرة حمص ، وانها تذكر بمعركة حاسمة تعتبر من

اعظم المعارك في التاريخ القديم ، وصفها مرسوم على جدار الاقصر في مصر ، تخليدا لانتصار رعمسيس الثاني ، في اواخر القرن الثالث عشر «ق م» على الحثيين . فاذا بصاحبي يضيف الى ذلك قوله : «وهي مرتفع اصطناعي يؤلف حلقة من المرتفعات التي كان القدماء يستخدمونها لايقاد النيران فوقها ، عندما كانوا يريدون نقل الانباء ولا سيما الحربية ، وهذا ما يسمونه : «البريد الناري» وهو اعلام بالاخطار ينتقل على السنة النيران المتتالية على روابٍ تنظر من بعيد ، فيصل الخبر وكأنه «برقية» بالنسبة الى ذلك الزمن .

وهذه البحيرة ، يضيف صاحبي ، هي اصطناعية ايضا ، وتعرف في التاريخ بـ «السد الروماني» . ومضى يريني في طريق قرية القصير بقايا آثار الاقنية التي كانت تنقل مياه الشفة الى مدينة حمص ، خلال المرحلة من التاريخ المسماة «السلم الروماني» .

ولم تكن احاديثنا التاريخية تقتصر على الجامد والصامت من المعالم التاريخية بل كانت تتناول بعض ما تبقى من آثار البداوة ومظاهرها في القرى والمزارع المنتشرة على السهول الممتدة ، الى جنبات حمص ، وفي القائم منها على ضفاف البحيرة .

دعانا مرة احد اعيان آل رسلان لرحلة صيد ، في عطلة اسبوعية مقترحا علينا ان نقضي ليل السبت – الاحد في دارته القائمة في ضيعة اسمها «الناعمة» الى الجنوب الغربي من بحيرة حمص. وكان في نطاق الدعوة ان نتناول طعام العشاء على مائدته . فقبلنا الدعوة : فعرفنا كيف تحدى المطايا الى الاهداف المقصودة . وبعد سير طويل مجهد حططنا رحالنا عند ابواب الدارة ونزلنا نستريح من عناء الركوب ، ونمني النفس بصيد يتناسب والمشقة التي تحملناها . فكان اول المصيد عشاء حمل الينا على «منسف» ضاق به البهو على رحبه . فأخذت امتحن كفاءتي في تناول الطعام باليد على راحتها واصابعها، وكم اعجبت بنفسي لانني لم الفت النظر الى جدتي بالموضوع.

وان انس لا انس دهشتي للحن يعرف بـ « دقة المهباج!» فللقهوة اعراف وتقاليد عربية اشهرها : ان الضيوف يشربون قهوة تدق ، ولا اقول تطحن ، بحضورهم، فالمهباج هو عبارة عن جرن خاص لسحق القهوة ، له مدقة طويلة ، لا يستطيع ان يدق بها القهوة من لم يتمرس بهذا العمل طويلا . فالمدقة وفوهة الجرن : كالخاتم والاصبع ، يعني ان الاصابة دقيقة ، ومن العيب ان تعثر المدقة بحافة الجرن ، فمعنى ذلك ان ساقي القهوة قبل الضيوف . ولذلك لا يكتفون بتسديد ضربات المدقة بل يجب ان تكون موقعة على لحن راقص هو « دقة المهباج » وهكذا قضينا وقتا طيبا .

بقي الا ننسى اننا كنا مدعوين الى نهار صيد على سطح البحيرة وانه لمن الطريف حقا ان نحدث ببعض ما

ارق

يا حابس الليل في جفنيك معذرة
ان رحت اشكو اليك الليل والارقا
أنزلته من سنا عينيك منزلة
تفري بكل فؤاد لو غدا حدقا
سبحان من أنبت الاهداب وارفة
وذوب الشمس في أفيائها شفقا
يا دامع العين كفكف بعض عبرتها
أما تخاف على انسانها الفرقا ؟
أكاد ألمح روحي في غواربها
تهيب بالجفن ان يبقي لها رمقا

وديع ديب

طلعت عليه شمس ذلك النهار من تشرين الثاني عام ١٩٣٠: عندما استقبلنا خيوط الضوء قبل بزوغ الشمس كنا ثلاثة صيادين على زورق ، اقتناه مضيفنا لمثل هذا اليوم ، وكان يجذفه نوتي شاب ، ربع القامة ، ملتمع السمرة ، مفتول الساعدين ، هو احد الاجراء المختصين بخدمة صاحب الضيافة . واول ما وقعت عليه عيناي فوق الماء ، الذي اخذنا نتبين كل ما يتحرك فوقه ، دائرة من القش تطفو وتتحرك في اتجاه يلوح فيه سرب من البط كبير تسمع له وقوقة يختفي معها اصطفاق مجذافي نوتينا النشيط . ولما رايت في وسط تلك الدائرة شيئا لم ينجل لي شكله ولا نوعه تولى مضيفنا الكريم تعريفه فقال :

هذا صياد قروي تربطه بهذه الدائرة العائمة خيوط قوية ، يمد يده اليسرى الى جانب من القش الزيتي المحيط به ، وباليد اليمنى يمسك بندقيته المحشوة . وهكذا يسبح مستخفيا حتى يصل الى السرب الذي لا تشك واحدة منه ان هذا الوافد عليها كتلة من هذا القش الذي يكثر على سطح البحيرة . وعندئذ يطلق الصائد عياره الناري فلا تذهب حبة من حباته ضائعة في الماء . ومثل هذا الكمين السيار يكثر في موسم الصيد ، ويعود على اصحابه بما يسد بعض الحاجة .

ولم يبق من مجال لصاحبي ان يطيل فقد رحنا نزاحم المرتزقة بالصيد على رزقهم ، فقضينا نهارنا نتخير الطرائد فلا نرمي بنارنا الا اجودها . وفي المساء عدنا الى قواعدنا ، وعندي عن بحيرة حمص يوم مشهود .

نسيم نصر



عودة العندليب

مهداة الى اخي الكاتب الكبير وديع فلسطين

* * *

يا هزارا غني لنا واستسرا ... يحزن الروض بعد مفناك دهرا
شيمة الزهر في الربيع ، ولكن ... رب عام طفى فصوح زهرا
يا رفيق الآداب عشت عفيفا ... قلم في النجوم ينضح طهرا
ما عرفنا على الصحيفة شرواك ولا كاتبا تكلل فخرا
عاش جرحى الاقلام مثل جنود ... حاربوا ثم غادروا الحرب صبرا
ما أرى فيهمو نداء يواليك بشكوى ولا ارى لك هجرا
يا حبيب النبوغ والصدق قل لي ... ما حساب الذي افادك ضرا
لو يصاغ الورد الندي سلاما ... كان هفهافه لدارك اسرى
ومضى قبلك الحكيم المعري وحيدا في محبس الفكر عمرا
غير ان الوفود راحت اليه ... دارسات فما تخلف ذكرا
ولهجر اليراع منك عذاب ... الألى قد علوا بعلمك قدرا
عد الينا واسكب مدادك ... كالعهد بفن نولت دنياه برا
حكم أقدارنا بأنا شموع ... ما ملكنا اطفاءها نحن قسرا
كوكب انت يـ «وديع» فلا تطفي سناه ، فلست تملك عذرا
قد شربنا كاس الاساءة من ايدي الاحبا وصيروا الحلو مرا
وملأنا في الجامعات رؤوسا ... لهمو بالحجى لنحدث امرا
فجزونا الذي اصاب سنمار فذقنا بما بنيناه غدرا
وأنا ابن الصفاف من بردى الحلو الذي قد جرى بقومي درا
وفؤادي ملء السماء وملء الارض لا يحتوي انتقاما وشرا

* * *

يا «فلسطين» عد الينا لفأل ... في فلسطين اذ سترجع نصرا
لا تدعنا نندب هواك ونسلك ... مثلك الهجر حيث نشبع قهرا

دمشق

زكي المحاسني

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

المطران غريغوريوس حجار

١٨٧٥ – ١٩٤٠

بقلم البدوي الملثم

* * *

مولده في «روم» احدى قرى اقليم جزين بلبنان الجنوبي عام ١٨٧٥ واسمه الاول «بشارة» كما سماه ابوه واجداده نزحوا من دمشق واستوطنوا قرية «قيتولي» المجاورة لـ «روم» وكان نزوحهم بين سني ١٧٣٠ – ١٧٤٠ وعرفوا في دمشق باسم «بيت بهيت» واشتهروا في لبنان باسم «بيت الحجار» اذ كانوا يزاولون قطع الحجارة ونحتها وبنائها وورث اغلب اولادهم واحفادهم هذه الصناعة عنهم . وبداعي حرفة البناء وقطع الحجارة ونحتها تفرقوا بين قرى روم وقيتولي وجزين ومشغرة وغيرها من القرى اللبنانية .

وبعد وفاة جرجس الحجار ، والد المترجم له ، اعتنت «زينة» والدة المترجم له بتربية طفلها وظهرت نجابته في مدرسة القرية واشتهرت امه برجاحة العقل وفرط الذكاء ورخامة الصوت فكانت تبدع في ابتكار الكلام لنظم مـراثي الامـوات كعادة نساء سورية في ذلك العهد .

وتميز الطفل بشارة بوجه مشرق وجبين وضاح وشعر اشقر ، وفي عام ١٨٨٤ انتخب قريبه الخوري الياس حجار رئيسا عاما للرهبانية المخلصية فجاءته زينة بولدها بشارة مهنئة بالمنصب الجديد وسألته قبوله في مدرسة عالية والعناية بامره ، وهنا لحظ الخوري الياس من نجابة الصبي ونباهته ما أعجبه فعزم على الحاقه بـ « المدرسة الصلاحية » في بيت المقدس اذ لم تكن مدرسة دير المخلص قرب صيدا تقبل في صفوفها الا الرهبان .وتمهيدا لهذا الغرض ارسله الخوري الياس الى دير المبتدئين الى ان يتدبر امر سفره الى فلسطين .

وبعد ثلاثة شهور بارح بشارة الدير الى بيت المقدس ولصغر سنه لم يقبل في مدرسة الصلاحية فعاد ادراجه الى دير المخلص واندمج في صفوف الطلاب الرهبان وشرع في مشاركتهم الزهد والتقشف والصلوات وارتدى مسوح الراهب واعتمر طاقية سوداء وعاش في محاريب الدير الى ان دخل مع زملائه المدرسة الرهبانية – بجوار دير المخلص – في ربيع عام ١٨٨٥ وفي عام ١٨٩١ شرع مع رفاقه صغار الرهابين في درس اللاهوت ، ولصغر سنه تخلف عنهم والبس ثوب الراهب وسمي «بوستينوس» تفاؤلا باسم الفيلسـوف المسيحي الشهير ورغم حداثة سنه كان الاول بين رفاقه وتميز بالذكاء وعشق المطالعة بالعربية والفرنسية وشغف بالادب العربي فحفظ الارجوزة اليازجية وقصيدة الاصمعي ومطلعها :

صوت صفير البلبل   هيج قلـب الثمل

الى مصر : وفي عام ارتدائه ثوب الراهب جاءه قريب مقيم في مصر وحدثه عن القاهرة ام الدنيا وعن مفاتنها واغراه بالسفر معه ليؤسسا في وادي النيل مجلة علمية عربية.فاستجاب الحجار الصغير لهذا الاغراء وعند وصولهما الى القاهرة اخلف قريبه في وعوده المعسولة ولم يحقق شيئا منها .

وذات يوم استوقف بشارة الخديوي عباس باشا وهو في طريقه الى قصره وقدم له عريضة التمس فيها الانتساب لمدرسة عالية مجانية ليتلقى العلوم فيها وبعد ايام تسلم ردا من دائرة الخديوي بقبوله طالبا مجانيا في اية مدرسة حكومية يختارها ومنحه مبلغا من المال لنفقاته الخاصة لكنه عين معلما في مدرسة طائفية تقع في حي الخرنفش بالقاهرة ، وعكف على درس الانكليزية والفرنسية والعلوم الرياضية وظل مثابرا على الدرس بثبات وعزم وصمم على تقديم الامتحان للحصول على البكالوريا من نظارة المعارف المصرية .

وفي الصيف الذي كان يمني النفس بتحقيق هذا الحلم الذهبي قدم مصر قريبه الخوري الياس الحجار وعندما اجتمع ببشارة لامه على ترك الدير واستسلامه للاحلام وطلب منه العودة معه الى لبنان ، فاذعن الشاب الحجار لهذا المطلب ولكنه آثر البقاء في القاهرة ريثما يقدم الامتحان وينال البكالوريا ، فقال له قريبه الخوري الياس : «ما لك وللامتحان ... هل تريد ان تكون (بك) ، او (باشا) ؟ ارجع الى الدير لتصير مطرانا !» فاثر كلام قريبه في نفسه وعاد معه الى احضان ام كانت تنشد نفسها قول شكرالله الجر الشاعر الكبير :

خبـراه باننـا مـا برحنـا   نسال الشمس عنه كل صباح !

الى الدير : وفي صيف عام ١٨٩٣ قصد بشارة دير المخلص وابدى للرئيس العام رغبة في الترهب ورجا قبوله في صفـوف الرهابين فلبى الرئيس طلبه وبعد ان سلخ بشارة ثلاث سنوات في المدرسة رسم في صيف عام ١٨٩٦ شماسا انجيليا وبعد عام رسم كاهنا باسم جبرائيل وشرع يعلم فيمدرسة الدير الطبيعيات والفلسفة والتاريخ والنحو والبيان والشعر والخطابة واليونانية وظل يدرس طلابا اكبر منه سنا حتى عام ١٩٠٠ وينشىء الرسائل باسم رئيس عام دير المخلص وكان مطران صيدا لطائفة الروم الكاثوليك يستدعيه الى مقر عمله ويصحبه الى دار الحكومة بصيدا ليلقي امام المسؤولين خطبة رسمية في عيدي المولد السلطاني والجلوس الهمايوني ، فكان يؤدي ذلك على احسن وجه نظرا لما حباه الله من فصاحة اللسان وروعة البيان ، وكانت خطبه موضع اعجاب المسؤولين والاهلين لروعة معانيها وبلاغة عباراتها حتى اشتهر في كافة محافظات لبنان باسم «الخطيب الساحر» وزاده مرانا المقامات الروحية والخطب الاجتماعية التي كان يلقيها في الكنائس والمدارس وحلق باسلوبه الرفيع في انشاء الرسائل، وترفع عن اللجوء الى السجع والقافية كما درج على ذلك ادباء عصر الانحطاط وتفرد باسلوب شعري بليغ في خطبه ورسائله وبذاكرة جبارة اختزنت الكثير من مفردات اللغة والقصائد والمعلقات !

الى فلسطين : وفي صيف عام ١٨٩٩ خلت مطرانية عكا من رئيس الاساقفة المطران اثناسيوس الصباغ فاتجهت انظار اعيان الابرشية الى دير المخلص لاختيار خلف صالح له فكان اسم الاب جبرائيل الحجار ملء الافواه لكن الاب المرشح لملء هذا المركز الديني الكبير كان عمره خمسة وعشرين عاما والقوانين الكنسية تحظر مثل هذا العمر ، مضافا الى هذا نفور الحجار من هذه المهمة الثقيلة الاعباء فكان يقول لمن يزوره في دير المخلص من وجوه واعيان عكا وحيفا والناصرة ويفاتحه بشان رسامته مطرانا : «انا شاب لا خبرة لي بادارة الابرشية واصابعي خلقت للقلم لا للخاتم !» لكن وجوه الطائفة الكاثوليكية في شمالي فلسطين طلبوا بلسان واحد من البطريرك بطرس الجريجيري رسامة الحجار مطرانا او ارساله نائبا بطريركيا الى ان تتم رسامته مطرانا اصيلا وانهم بتصميم واحد ورأي واحد لا يرضون عنه بديلا .

وتفاديا للانقسام نزل البطريرك على رأي اعيان الطائفة ووافق على ارسال الخوري جبرائيل الحجار الى عكا نائبا بطريركيا ليختبر ادارة هذه الابرشية وليختبره اعيانها ، وكتب اليه للشخوص الى مقر عمله فاعتذر الحجار بعجزه عن تصريف الامور في النيابة البطريركية لضآلة خبرته وصغر سنه ، فغضب البطريرك من الاعتذار وكتب للحجار فيما كتب : «ما كنت انتظر منك مثل هذه العصاوة ... فقم سريعا الى المركز المعين لك والسلام!» فرد الحجار فيما رد على البطريرك بقوله : « اسمحوا لي يا سيدنا ان اقول لكم بكل احترام لستم اعظم من ربنا ، ولا أنا اقدس من ابراهيم ، والكتاب المقدس يذكر ان أبانا ابراهيم

توسل الى الله ، ولم يغضب الله عليه...ومع هذا فاني متوجه الى عكا متكلا على الله !)).

وفي الثامن والعشرين من آب عام ١٩٠٠ بلغ عكا قادما من صيدا وتولى ادارة الابرشية مدة اربعين عاما ونيف بهمة الشباب وحكمة الشيوخ وغيرة الرسل وفي اليوم التالي أقام قداسا فبدا لابناء طائفته بغرة بيضاء فوق جبهته الواسعة وشعره الاشقر الجميل منسدل على كتفيه وتحقق لهم اسم «مسيح الشرق» الذي اطلقه عليه السياح الغربيون الذين زاروه في ابرشيته والقى في المصلين خطبة استهلها بقوله : «هذا حجاركم الذي طالما تقتم الى مشاهدته ظانين انه رجل كبير عظيم ، وما هو بالحقيقة ، كما ترونه ، الا قصبة ضعيفة يحركها الريح !)) .

وفي عام ١٩٢٥ تداعت فلسطين وشقيقاتها العربيات الى الاحتفال بيوبيل الحجار الفضي وأسهم في هذا المهرجان الرائع شاعر الاقطار العربية خليل مطران بقصيدة صور فيها «مطران العرب» بصفاته وخلاله ومزاياه بقوله :

بورك في خلقك المليح   يا اشبه الخلق بالمسيح
وفي ذكاء له شعاع   يبدو على وجهك الصبيح
وفي خصال متممات   بالخلق الطاهر الصريح
وفي تناه بلا تباه   ذودا عن المبدأ الصحيح
اعدت «قسا» (١) وأين «قس»   لو عاد ، من نده الفصيح
هل لنجيب ادراك شأو   في شوط عليائك الفسيح؟
بوهمه يعثر المجلي   ان رامه ، عثرة الطليح (٢)
عظاتك البالغات طب   من التباريح والجروح (٣)
فيهن للجسم برء جسم   فيهن للروح برء روح

مولاي! هذا مقال حق   ما فيه شيء من المديح
يا سعد قوم وليت فيهم   ولاية المصلح المشيح (٤)
خمس وعشرون قمت فيها   بامرهم غير مستريح
نفاذ رأي ، شديد عزم   غير عتي ولا جموح
لك البييت الداني وتبني   للبر مرفوعة الصروح
لولا اضطرار قضى بلبس   الطراز شوهدت في المسوح(٥)
تأخذ اخذ الجميل فيما   تبغي وتنهي عن القبيح
تغفر للخاطىء اقتداء   بربك الغابر السميح
لست لعذر عن اي قول   أو أي فعل بمستميح
والنصح ما زاده قبولا   كالصدق من جانب النصيح
لا تفتأ الدهر في حلول   لسد ثغر أو في نزوح
قلب الى الخالدات يرنو   بناظر طاهر طموح
او قلم كاتب وصوت   مردد ما اليك أو حي
ما ان رأينا له سميا   وجفنه ليس بالقريح

«رشيد» (٦) ابلغ أجل حبر   تهنئة الوامق النصوح
وادع له بالبقاء حتى   يتم قدسية الفتوح
غير كثير لو عاش قطب   له مزاياه عمر « نوح » !
فأي عصر وأي مصر   بمثله ليس بالشحيح ؟

مطران العرب : واطلق عليه زعماء فلسطين لقب «مطران العرب» شعورا منهم بان الحجار عمل كثيرا في سبيل فلسطين ودفع عوادي السياسة الهوجاء عنها .وحول هذا اللقب الجميل تحدث الحجار الى جريدة «الصحافي التائه» اللبنانية بقوله :

« انا مطران العرب! هذا لقب جميل اعطانيه ابناء بلادي على اختلاف مذاهبهم في كفاحهم وجهادهم لتحرير بلادهم من ربقة الصهيونيين!

هذا لقب يعلي قدري ويزيدني شرفا ويشجعني في كفاحي ونشاطي في سبيل عرب فلسطين وانقاذهم من الخطر الصهيوني الذي لا تشعرون به ولا تقدرونه حق قدره في لبنان ، فأنتم في لبنان مخدوعون في امر الصهيونية لا ترون فيها غير المال الذي جاءت به الى بلادنا ولكنه مال باق لليهود.واذا استفاد منه بعض الملاكين القلائل عندنا ، فهذا لا يعني ان فلسطين العربية استفادت منه ! ان الفقر والحاجة اللذين يعيش بهما ابناء الشعب بفلسطين لم يسبق لهما مثيل !

والجنيه الذي اعطاه اليهودي استرده خلال السنوات الاخيرة اضعافا واضعافا ! والصهيوني يعيش لوحده على جانب من ابناء البلاد، هو يقاطعها مقاطعة كلية ، واذا اضطر ان يشتري دواء في الليل لمريض مخطر وكانت هناك صيدلية عربية بقرب بيته لا يذهب اليها بل يشتري دواءه من صيدلية يهودية ولو كانت في اطراف البلد !

ليس بيننا وبين اليهودي صلة تفاهم ، كلانا يشعر انه غريب عن الاخر ، حتى نهاية الدهور ! ولا شك في ان الاستثمار الذي قام به الصهيوني اخذ البقية الباقية من اموال الفلسطينيين !

هل تعتقدون ان الشعب الفلسطيني وصل الى هذه الحالة من الحماس والتضحيات وركوب الاخطار في حرب الكفاح الا بعد ان استولى اليأس عليه تماما ولم يعد يجد منفذا سلميا يخرج منه ، وهل تعتقدون ان في فلسطين غير الشقاء والفاجعة اليوم؟ ومع هذا فانتم بلبنان ما تزالون تعتقدون ان وجود اليهود عندنا ثروة لنا !!.

وبينكم من يتغنى بهم .. ومن كباركم الاجلاء من يأخذ جانبهم ! ولكن هؤلاء اليهود جاؤوا ايضا يشلحوننا نحن النصارى «القبر المقدس» جاؤوا بمملكتهم اليهودية عن اراضي سيدنا يسوع المسيح وهم صالبوه !

فلو تحققت المملكة اليهودية لقمنا نحن النصارى العرب ايضا الى البادية وتركنا معابدنا ونواقيسنا والارض التي وطئها السيد المسيح ، له المجد ، لليهود الذين قادوه الى جبل الجلجلة !

كل هذا لم يفتكر به احد منكم في لبنان ، بل افتكرتم بتلك الجنيهات التي يصرفها بعض المصطافين اليهود ايام الصيف في بلادكم !ولكن لو اتيح للصهيونيين ان يأتوا اليكم وان يعيشوا عندكم احرارا ، فهل تعتقدون ان واحدا منهم حينذاك يتعامل معكم او يشتري منكم حاجة او يستاجر عندكم بيتا؟ انهم يؤلفون مستعمرات لوحدهم ـ كما هم بفلسطين ـ ويستغنون عن اللبنانيين تماما ولا يكون بينكم وبينهم اخذ وعطاء». هذا ما نشرته جريدة «الصحافي التائه» اللبنانية.

مصرع النسر : وفي صباح ٣٠ تشرين الاول ١٩٤٠ بارح الحجار حيفا الى القدس وقابل المندوب السامي وسعى ، بمناسبة عيد الفطر، في العفو عن بعض من حكم عليهم بالاعدام والسجن من شخصيات الثورة الفلسطينية . وبعد ان تحقق مسعاه قصد الحرم الشريف وزف بشائر العفو عن المحكومين والمسجونين العرب فحمله الشبان على الاكف وحيوا «مطران العرب» وهتفوا بحياته منوهين بجهوده القومية ومساعيه الحميدة للافراج عن ضحايا الثورة .

وفي المساء عاد الحجار الى حيفا، وكان التعتيم يلف انحاء فلسطين لنشوب الحرب العالمية الثانية وبلغت به سيارته ضاحية «وادي الجمال» على طريق العزيزية بحيفا فاصطدمت سيارته بعربة خيل يجرها يهودي فأمر سيادته بالتوقف حالا وترجل ليرى ما اصاب العربة وصاحبها فاذا احد الحصانين ميتا وصاحبه يصيح ويلطم فعزاه الحجار بعبارات رقيقة ونقده مبلغا من المال تعويضا عن حصانه وعند عودته ليمتطي سيارته مرت سيارة مسرعة صرعت الحجار صرعة قوية فدب الذعر فيمن تجمهروا وحملوا سيادته الى مستشفى الحكومة بحيفا وهناك وجد الاطباء ان الصدمة اصابت رأسه وافقدته عينه اليسرى وبعد ساعة فاضت روحه الى خالقها .

وبعد موته لغطت بعض الاوساط العربية بان الانكليز دبروا امر مصرعه ثأرا منه لصلابة عوده ولموقفه السلبي من « الوطن القومي » وللصراحة التي تميزت بها الشهادة التي ادلى بها امام اعضاء اللجنة الملكية البريطانية في القدس .

ودفن هذا العربي المؤمن داخل كنيسة السيدة بحيفا واشترك في مأتمه كبار رجالات فلسطين والاردن وسورية ولبنان .

كانت صلاة الحجار في يقظته وعند نومه الدعاء لان ينقذ الله فلسطين من براثن الصهيونية ويدفع عنها عوادي السياسة وكان في ختام صلاته يردد الكلمة النابعة من قلب عربي طهور :

« اقبل نفسي يا رب ضحية عن شعبك وامنح السلام للعالم ولفلسطين وبارك يا رب شعبك وارحم نفسي ! »

نموذج من شعره : في شتاء عام ١٩٣٩ اجريت عملية جراحية على الشاعر المرحوم رشيد نخله في مستشفى الدكتور ربيز في بيروت فبترت ساقه واصبح (الزمخشري الثاني) . وعندما زاره المطران الحجار في المستشفى خاطبه مرتجلا قوله :

قطعوا الرجل وابقوا همما   سابقات كل فجر قدما
دائسات كل صعب حائل   بالغات في المعالي القمما
ويراعا كلما أجريته   راع ظلاما وجلى ظلما
كم فتوح في المعاني مدها   ننشر الطرس عليها علما
خطب السيف على كفيك اذ   جعل الكلم بفيه كلما
لطفك الاخاذ في القلب سرى   ليس بدعا فهو بارى النسما
يا (رشيدا) دمت في لبناننا   (نخلة) الفضل وارزا عظما
بقيت اوصافك الحسنى لنا   زهرا في الروض او زهر السما

وفي رسم اخذه المصور قال الحجار بلسان الفيلسوف الساخر :

أضعت لدى المصور بعض وقتي   وأطمعني بامجاد الخلود !
ولكن ليس في الدنيا خلود ... !   فهذي صورتي...ذكرى وجودي !

نموذج من نثره : «ايها النبلاء (٧) الاماجد ! لم اكن اطمع في الحظوة بالتعرف الشخصي بكم لكثرة شواغلي ، بل كنت مقتصرا على الادعاء الى الله ان يمنحكم من انواره ما يكشف لكم الحقائق في فلسطين ويلهمكم الخير والعدل فتكونوا قد برهنتم مرة اخرى على ما اشتهر عن نزاهة القضاء البريطاني واستقلاله الذي لمسناه نحن في اشخاص «هكرافت» (٨) و «مكدونل» (٩) ، لكن ارتفعت حولي من صدور الشعب العربي الفلسطيني اصوات كثيرة الحت علي ان اتصل بلجنتكم الموقرة واطلعها على حقيقة الحال الراهنة فلم يسعني الا الحضور الى هنا خدمة للحق والوطن ثم للتعرف الشخصي .

آتيت اذن لأتكلم لا باسمي الشخصي فقط كرئيس ديني مستقل وانما أتيت لانقل اليكم صدى ما سمعته واسمعه من شعبنا العربي الفلسطيني في المدن والقرى وانا مختلط به اختلاطا تاما منذ ٣٦ سنة كأسقف عربي احس مع الشعب ، فأتألم لألمه وافرح لفرحه وهو يفضي الي بذات صدره في كل فرصة !

الخلاف في فلسطين هو اعمق مما تظنون وبين فريقين ، بين العنصر العربي الفلسطيني والعناصر الصهيونية !

قلت العنصر العربي الفلسطيني وهو يضم مسلمي ومسيحيي فلسطين وغيرهم من ذوي المذاهب الاخرى الذين تجمع بينهم روابط الدم واللغة ولا تجهلون ان الفلسطينيين العرب هم متحدرون من سكان فلسطين الاصليين الذين توطنوا هذه البلاد من آلاف السنين قبل اليهود ، ولم يقو اليهود على طردهم ، وبقيت البلاد باسمهم الى الان ، فلم يملك اليهود الا جزءا منها مدة بعض قرون ثم ظهر الدين المسيحي في فلسطين فتنصر كلهم ومعهم قسم اليهود كما تذكر الكتب السماوية وأصبحت فلسطين مسيحية على رغم الاضطهادات التي قامت ضد المسيحيين والتي ينسب كثير من المؤرخين اسبابها الى دسائس اليهود، وهذا ما لا أريد ان ادخل فيه الان ، فامتلات فلسطين بالكنائس المسيحية ثم اتى الفتح الاسلامي فاحترم المقدسات لانه يجل المسيح نفسه ، ولكن القسم الاكبر من المسيحيين اعتنق الدين الاسلامي وانتشرت اللغة العربية حتى عمت البلاد!

ومن جمال ومزايا الفتح الاسلامي العربي ان امتزج الفاتحون بشعوب البلاد التي افتتحوها وحولوها اليهم على حين انهم لم يتركوا فيها الا قسما من جيشهم وموظفيهم وبقي قسم ضئيل من المسيحيين محافظا على نصرانيته لكن ذلك لم يضر بوحدة الاصل وصلة الدم بين الفريقين .

ثم قلت ان الاختلاف هو بين العنصر العربي وبين العناصر اليهودية ذلكم لان اليهود هنا ليسوا من عنصر واحد ، ولا من دم واحد، فمنهم بولونيون وروس وتشيكوسلوفاكيون وافرنسيون وانكليز واميركان والمان الخ ...

اختلاف الجنسيات والعناصر عند اليهود : أية قومية ترى يعنيها الوعد بين التي ذكرناها ؟ أهي الانكليزية ام الافرنسية ؟ فقد اعتاد الحلفاء ان يراعوا القومية والجنسية في تقسيم البلدان ، اما هنا فالجنسيات متباعدة بل ومتعادية وهم يريدون ان يجعلوها قومية واحدة ، فلو كانوا اقتصروا على جنسية واحدة من جنسيات الحلفاء لكان لهم شبه عذر ! ولكن نحن نرى الان ان دماءهم سفكت لتعطى فلسطين لجنسيات كانت معادية لهم كالالمانية والتركية والنمساوية والمسكوبية ولا نرى حلا منطقيا نستطيع ان نطبق عملهم على وعدهم هذا الا ان يقال بانهم يعنون بالقومية الدين اليهودي ! وبهذا يكونون خالفوا كل طرائقهم في تقسيم البلدان لكي يرتكبوا مظلمة تاريخية فاضحة ولا أظنكم الا موافقين معنا على انه لا يوجد (شعب يهودي) في العالم ، ولو سألنا «بلوم» رئيس وزراء فرنسا و «هربرت صموئيل» المندوب السامي البريطاني من اية جنسية هما؟ لاجاب كل منهما بالانتماء الى الامة التي يحكمها ، فاليهودية اذن في العالم ليست هي الا دينا كالاسلامية والمسيحية ، ووعد الحلفاء انما هو لليهودية الدينية ، لان من كان يهوديا وتنصر او أسلم يحرم من ثمرات وعد بلفور ولو كان ابن ابراهيم ومن نسل داود والعكس بالعكس ، فاذا كان الامر كذلك دعوني أبحث معكم على هذه القاعدة !

اصبح اليهود بقوة الوعد اصحاب البلاد : ان «الوطن القومي» معناه «الدار القومية» كما تعني كلمة National Home, Foyer National ومتى أصبحت «فلسطين» دارا لدين واحد او لمن يدينون به فالمنطق يقضي بان يكون كل اصحاب الاديان الاخرى غرباء وضيوفا ! هذا ما صرح به احد خطباء اليهود في يافا اذ قال : «نحن عدنا الى هنا كما يعود الانسان الى بيته لا كغرباء ونحن نراعي اصحاب الاديان الاخرى اذا لم يزعجونا!» اذن هم يصبحون بقوة هذا الوعد اصحاب البلاد ونحن كزنوج اميركا ، وهل يا ترى يكون هذا عادلا ؟ وعلى أي شيء يقوم هذا الحق؟ يجيبني الكثيرون من الجهة المقابلة على انه منذ الفي سنة كانت امة تسمى «اليهودية» ساكنة في فلسطين على حين ان هذه الامة كما قلنا لم تملك الا قسما من فلسطين بضعة قرون ملكا متقلقلا ، ولم يكن على ما اظن قط مطلقا متصلا فقد تخللته فتوحات كثيرة للاشوريين والمصريين واليونان وكانوا يبقون الملك اليهودي منضويا الى ملوكهم ، فمن ذلك نفهم ان الملك سليمان تزوج ابنة فرعون ، وفضلا عن ذلك ان القسم الاكبر من يهود عصرنا ليسوا من الامة اليهودية القديمة المنتمية الى «يعقوب» و «داود» فالتاريخ يخبرنا انه في القرن

---

١ ـ اشارة الى قس بن ساعدة بن عمرو الايادي اسقف نجران ، خطيب العرب وشاعرها ويضرب به المثل في البلاغة . (٢) الطليح : الهزيل الذي غلبه الاعياء. (٣) التباريح : شدة الالام . (٤) ـ المشيح : المجتهد المجد . (٥) ـ الطراز : رسم الثوب ورقمه . (٦) ـ هو الاديب الاستاذ رشيد خوري وكان يشغل مركزا مرموقا في بلدية حيفا . (٧) من الشهادة التى ادلى بها المغفور له المطران حجار في ١٧ ك٢ ١٩٣٧ عن حالة فلسطين امام اعضاء اللجنة الملكية البريطانية في القدس وتركت دويا هائلا في كافة الاوساط . (٨) و (٩) من عدول القضاة البريطانيين في فلسطين.

الثاني للمسيح قد اعتنق اليهودية سبعمئة الف من الوثنيين التتر في روسيا وهؤلاء ، كما اظن ، اصبحوا في خلال ١٨٠٠ سنة لا أقل من خمسة الى سبعة ملايين من عشرة ملايين تعدها الامة اليهودية ولا يمتون الى يهودية «داود» بقرابة الا الصلة الدينية ، فرابطتهم بهذه البلاد التي تجذبهم على فقرها انما هي نزعة دينية محضة ولكن هذه النزعة لا تتحملها ولا يمكن أن تتحملها الديانتان الاسلامية والمسيحية ، فالديانة اليهودية تضم الان عشرة ملايين والاسلامية ٤٠٠ مليون والمسيحية ٨٠٠ مليون وهي تصطدم معها اصطداما عنيفا لا لين ولا هوادة معه .

الاكثرية اليهودية يعارضها المسلمون والنصارى : ان اليهود متى كثروا بهذه الهجرة المتدفقة اصبحوا اكثرية سائدة ، ومتى سادت تكون قد خالفت الآية القرآنية الكريمة : « ضربت عليهم الذلة والمسكنة » فاصبح اذن واجبا محتما على كل مسلم ان يقاوم هذه الهجرة وهذه السيادة مستميتا في جهاده استماتة شريفة ، ثم ان اليهود يطمحون الى «الهيكل السليماني»» طموحا لا يمكن اغفاله ولا الجدال فيه وهو غايتهم الاخيرة ، لانهم بدونه وفي خارجه لا يستطيعون ان يقدموا ذبائح وضحايا ، ولا يكون لهم كهنة ولا يمكن ان يكونوا امة !

أستطيع ان اقول ان فلسطين بدون «الهيكل السليماني» لا قيمة لها في نظرهم بيد أن هذا «الهيكل» هو مقدس من اجل المقدسات الاسلامية وثالث الحرمين الشريفين وكل مسلم يتفانى في الدفاع عنه في اية بقعة اقام .

هذا من الجهة الاسلامية اما من الجهة المسيحية فاليهودية تطلب هذه البلاد كأرض الموعد لها لكن الدين المسيحي يجيب قائلا : اننا نحن اسرائيل الجديد ، نحن ابناء ابراهيم بالموعد ، نحن حللنا محل اليهودية القديمة وقد قال القديس بولس : «لتكن على الامم بركة ابراهيم في المسيح يسوع لتنال بالايمان موعد الروح» ثم ثنى قائلا : «وقد قيلت المواعيد لابراهيم ونسله» ولا يقول : «للانسال» بل «لنسلك» يعني واحدا وهو المسيح.

الاتفاق مستحيل لعدم اخلاص اليهود : وفلسطين كأرض الموعد من جهة دينية نرى ان المسيحيين ينازعون اليهود فيها وزد على ذلك ان الدين المسيحي يقول لليهودي : ان روابطي بفلسطين هي اقوى جدا من روابطك ، فان يكن لك فيها انبياء وملوك فهي موطن «مخلصي» الالهي وموطن رسله ومهد كنيسته ، وملوكك وانبياؤك نحن نكرمهم بقدر ما تفعل انت او اكثر ، والدين المسيحي يعترف بالاخاء البشري العام وبالمساواة بالحقوق .

زارني يوما احد رؤساء العالم الصهيوني وكان (جنتلمان) بقدر ما يمكن ، وسألني : «اولا يمكن ان نتفق!؟ » قلت : «بكل سرور من جهتنا اذا أمكن ذلك باخلاص من جهتكم!» اجاب : «ولماذا؟» قلت : أتعرف يهوديا اقدس من النبي داود؟» اجاب : «لا» فذكرت له ان داود عندما كان منهزما امام شاؤول وهذا يتعقبه طالبا قتله لجأ هو الى ملك الفلسطينيين فحماه واكرم مثواه وكانت النتيجة انه كان يسقط كل ليلة على قرية من قرى الفلسطينيين ويبيد سكانها وهو يعتقد انه كان يحسن صنعا بابادة اعداء (شعب الله) المعتدين على ارضه!» .

وانتهيت الى ان قلت : «نحن الفلسطينيون اليوم بازائكم وانتم تمثلون حالة داود ، فاذا امكنكم ان تعملوا ما عمله داود لما تأخرتم !»

هذه النظريات قد اختمرت في رؤوس الاهالي مسلمين ومسيحيين وكانت من اكبر اسباب الانفجار الاخير ، وانني اشهد انني لم ار «جماعا منهم بقدر ما رأيت فيه كأنهم كلهم كانوا يرون المسألة حيوية لهم واستطيع ان اقول أن الفلسطينيين مبدئيا لا يكرهون الانكليز لانفسهم بل لسياستهم الصهيونية هنا .

انتشار الخلاعة والاباحية بين اليهود : أما المقدسات المسيحية فلم تنتهك حرمتها للآن بطريقة واحدة ، لكن ما قولكم اذا كانت هذه المقدسات محاطة بمن يرونها ، كما نرى نحن هياكل الوثنيين ولذلك تفقد جلالة قدسيتها ولهذه النظرية قد كانت الحكومة العثمانية حظرت على كل يهودي ان يمر امام كنيسة القيامة بل أزيد فأقول : ان فلسطين تسمى كلها الاراضي المقدسة باللغة المسيحية وعندما يصل الزوار الى شواطئها يركعون ويقبلون الارض ، لكن اي اشمئزاز يحدث فيهم مما يشاهدونه بكثرة من تلك الازياء الخلاعية التي لا يكاد يسمح بها في المدن الكبرى عندكم !

لقد جلت في اوروبا ولم ار نساء وبنات يطفن الشوارع في مدنكم بملابس الحمام بل بأقل منها حشمة ، واقول ان ذلك ايضا ما تنفر منه آدابنا واخلاقنا الشرقية ومما يزيدنا كرها لليهود ، ولا اعمم هذا على كل يهودي لانني اعترافا بالحق أقول انه يوجد بين اليهود بيوت ذات آداب وحشمة ، ثم اية هيبة تبقى للاراضي المقدسة في نظر الزوار عندما يقومون الى هنا ويرون الشيوعية منتشرة فيها كما في سائر البلاد او اكثر ؟ وهذه الشيوعية التي القت التشويش في شعبنا البسيط الوادع الذي طالما عاش في سكينة وسلام .

أو ليس،عملا بهذه النظرية ـ أي المحافظة على جلالة مقدساتهم ـ يحظر المسلمون دخول مكة على من لا يدين بدينهم وقد اثرت هذه النظرية على بعض النواب الانكليز فاعترضوا على مشروع روتنبرغ لانه انقص من جلالة وقدسية بحيرة طبريا ، اما ممارسة ديانتنا واكرام رؤساء ديننا فقد كان مضمونا بالامتيازات التي منحنا اياها سلاطين آل عثمان وخلفاء المسلمين وقد احتججت مرات كثيرة ان اجاهد لاثبت بعضها لدى المراجع الايجابية بعد الحرب ومع ذلك لم تبق كلها باتساعها الذي كان لها قبلا .

تأثير اليهودية على حرية النصارى الدينية : ذات يوم على اثر تجديف علني قذف به احد اليهود (مسيحنا) شئنا ان نعمل«زياحا» دينيا تكفيريا بحسب مراسيم عوائدنا بين كنائسنا التي لا يبعد بعضها عن بعض الا قليلا فصدتنا الحكومة بالقوة وأجابنا الحاكم عندما ذهبنا اليه: «نخشى ان يعتدي على شعوركم الديني احد اليهود فينتج ما لا تحمد عقباه ! »).

ثم ان بطريركنا شاء ان يقوم بزيارة دينية رسمية لاول مرة لفلسطين وكان علينا بحسب عوائدنا الدينية ان نمر امامه بموكب ديني مع الصليب في بعض الشوارع فمنعنا ايضا للسبب نفسه ، ولما شاء ان يقوم البطريرك نفسه رسميا من حيفا الى يافا رأسا اوجب عليه الحاكم الا يجعل طريقه تل ابيب والمستعمرات اليهودية فاضطر ان يمر بالقدس ثم يتوجه الى يافا !

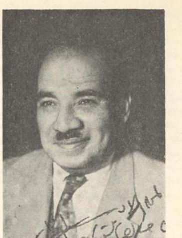
المساواة بين المسلمين والمسيحيين في السابق : في ظل الخلافة الاسلامية كان المسيحيون يقاسمون اخوانهم المسلمين المحاكم ومجالس الادارة والمجالس البلدية مناصفة بعدد متساو وبدون نظر الى اقلية او اكثرية ، فنابلس وعكا وجنين وصفد وغيرها على قلة المسيحيين فيها ، كانت الحكومة العثمانية تمنحهم حق التساوي مع اخوانهم المسلمين وعندما اتى اليهود لم يستطيعوا بالطبع ان يأخذوا هذا الحق من المسلمين لكثرتهم فسلبوه من النصارى .

وقد كان ، منذ تأسيس البلديات ، نائب رئيس البلدية في حيفا مسيحيا فانتقل هذا الكرسي الى يهودي ، وفي صفد لم يعد للمسيحيين اقل تمثيل في البلدية ، وفي طبريا لولا اهتمام المسلمين لكثرتهم ، لما بقي العضو المسيحي فيها .

انانية اليهود وتعصبهم لابناء جنسهم : ثم مما يبغض المسيحيين والمسلمين باليهود ، عدا ما ذكرت ، انانيتهم القومية الشديدة ، المتعصبة فانهم لا يأذنون لواحد منهم ان يستخدم غير يهودي ، وانني اذكر العام الفائت ان احدهم سلم بناء لاحد المسيحيين فما لبث ان انقض عليه العمال اليهود بالمئات وحطموا وكسروا وعلى رغم تداخل البوليس بقوا معارضين للعمل حتى اضطر المسيحي ان يتركه .»

هذه هي الشهادة التي ادلى بها المغفور له المطران حجار في ١٧ كانون ثاني ١٩٣٧ عن حالة فلسطين امام اعضاء اللجنة الملكيةالبريطانية في القدس وتركت دويا هائلا في كافة الاوساط .

الاردن ـ عمان　　　　البدوي الملثم



انـور الجنـدي

النقد بين الهجاء والدعابة

بقلـم انـور الجندي

* * *

في مراجعة شاملة للمعارك الادبية والمساجلات الفكرية تبدو صفحات مجهولة هي مزيج بالهجاء والدعابة والسخرية ، ولكنه هجاء رفيع ، ودعابة فكهة ، وسخرية حلوة غير مرة ، ولقد اتيح لي ان اسجل اكثر من ستين معركة ادبية جرت بين اوائل هذا القرن وبين الحرب العالمية الثانية ، غير اني لم البث ان تجمعت لي خلال المراجعات المتصلة صور جديدة غاية في الطرافة ، تتجلى في مناقشات كتابنا المشاهير ، هيكل باشا والمازني والعقاد وزكي مبارك واحمد امين والرافعي مصطفى، والرافعي امين ، انها اشبه بحلبة تتقاذف فيها الكرة بين ايدي وارجل اللاعبين على غير هدى فيها صورة الصراع والسخرية ، والدعابة والهجاء ، محاولة ان ترسم ملامح شخصية واساس بناء .

ومعروف انه كانت بين المازني وطه حسين معارك وسخريات متصلة ، منذ هاجم المازني طـه حسين ووصفه بما وصف به شعراء الجاهلية ، وقال فيما قاله ان الشك في وجود شخصية طـه حسين سيكون يوما اشبه بشك طه حسين في شخصية امرىء القيس وعنترة، وذلك حين يقال الشيخ طه حسين والاستاذ طه حسين والدكتور طـه حسين ، وحين ترى صورته بالعمامة والطربوش والقبعة ، وان الناس سوف يقولون ان هناك ثلاث شخصيات تحمل اسما واحدا ، ومن هنا يسري الشك في الاسماء جميعا.

وحين رفض طه حسين تجديد عقد الدكتور زكي مبارك وفصله من الجامعة هاجم المازني طه حسين وقال : لو كنت اقول الشعر في هذه الايام لرثيت طه حسين ، فانه يخيل الي انه قد مات طه الذي عرفته واحببته واكبرته وجاء غيره الذي انكره .

وهناك جولات متعددة ومساجلات مختلفة بينهما على طول الحياة الادبية والسياسية في مصر بين الحربين ، غير ان اطرف هذه الدعابات جميعا «دعابة دكان الطعمية » وكان محرر احدى المجلات قد سأل الادباء هذا السؤال : هل تطلق الادب اذا اصبح دخلك ثلاثة الاف جنيه في العام فقال المازني : اني اقتنع بثلاثمائة جنيه في العام ، ولا اتردد في ترك الادب وفتح دكان للفول والطعمية ، فلما سئل طه حسين قال : «كنت احب ان تعطي هذه الالاف الثلاثة للمازني انه رجل يتمنى ان يقع في يده مثل هذا المبلغ ليفتح دكانا كدكان ابي ظريفه يبيع فيه الفول والطعمية ، واذن فانا زعيم لك بانني اذهب اليه كل يوم لآكل من فوله وطعميته ، لانهما من نوع نظيف ، واغلب ظني انه (سينقد) الصحون والقدور واعمال العمال (نقدا) حسنا يرتاح اليه الزبائن ، وستكون تجربة لطيفة ربما افادت بعض الادباء » . وسكت المازني عشر سنين ثم كتب يقول في احدى دعاباته «اظن اني غيرت رأيي ، لن افتح دكانا وانتهى الامر ، ولكنه ليس دكان طعمية ، ولكنه دكان ادب ، الا تراني البي طلبات المجلات والصحف ، ولا أكاد اجد دقيقة واحدة اكتب فيها شيئا على مهل ، واتوخى فيه التجويد .اما صديقنا الدكتور طه فاقول لـه آسفا ان عليه ان يبحث عن طعمجي غيري.»

اما زكي مبارك فقد كان مصاولا عنيفا وصفه الزيات مرة بانه لاعب يلبس القفاز السنتريسي (نسبة الى قريته سنتريس) وانه يضرب ذات اليمين وذات اليسار وانه باعتباره الحكم في الحلبة (والحلبة هنا هي حلبة الرسالة التي كان يصدرها الزيات) قد عجز وعجزت صفارته عن رده الى الصواب .وقد وصفه احمد امين بانه رجل مشاغب يحمـل عصا ويتعرض بها للمارة ، وقد دعي زكي مبارك مرة الى ان يعـرض ادباء مصر على المشرحة فقال :

«عندنا ادباء كبار بلا نزاع ولكن هؤلاء الادباء يخلفون الظنون فـي بعض الاحيان ، فالدكتور طه حسين كاتب ، كاتب كبير، ولكنه غيـر باحث، لانه قليل الصبر على اختيار النصوص والاسانيد ، ولانه قـد يستبيح تاليف كتاب عن الادب الجاهلي بدون ان يستقرىء احوال ذلك الادب ، وبدون ان يشغل نفسه بدرس ما لذلك الادب وما عليه فيخرج كتابه وقد انحاز الى جانب واحد من جوانب التحقيق ولا يخلو مـن عيب هو اهتمامه بتسجيل المساوىء والعيوب ، وزهده في تسجيل المحاسن والطيبات ، الم تر كيـف صور البيئات الازهرية في الجزء الثاني من «الايام» بعد ان الح في تصوير العيوب الحاحا عنيفا ، ومر مرور الطيف بمحاسن الازهر في ذلك العهد ، وترك الجانب الاهم وهو تصوير الازمات الازهرية في الانتقال من حال الى احوال ، يوم احس الازهر عذاب الحيرة بين مدنية الشرق ومدنية الغرب ، وهو موضوع اخطر واشرف من الحديث عن غزوات ابي طرطور في ظلمات الليل .

اما احمد امين فهو باحث متفوق ولكنه لا يملك ناحية التفوق الا حين يمشي في طريق مسلوك ، عبدته اقلام الباحثين ، فان تجاوز ذلك الى الابتكار فحاله حال من يمشي حافي القدمين في طريق مملوء بالاشواك .ومن تحت الاشواك حياتوثعابين. واحمد أمين ليس بكاتب، ولكنه مع ذلك يتكلف الكتابة، وقد يتظرف فيتحدث عن الحب ، ولعله يصل بقوة المثابرة الى الطواف بهيكل البيان بعد عشر سنين .

اما توفيق الحكيم فهو اديب بالفطرة، ولكن تعوزه ادوات الاديب، فاطلاعه على الادب العربي عدم من العدم ، وهو لم يجد في غير كتاب «عصفور من الشرق» وانما اجاد في هذا الكتاب لانه نسي انه كاتـب مشهور ، وتذكر انه الانسان يحس حيال الشرق والغرب ، فاجـاد اجادة لم يكن لها باهـل.

والزيات كاتب متانق لا يكتب الصفحة الواحدة الا في يومين او ايام ، ولولا اضطراره الى مسايرة «الرسالة» لشغل نفسه بالصفحـة الواحدة اسابيع ، وتانق الزيات تانق مقبول ، ولكنه حرم اسلوبه من قوة الحركة ، فهو يقهر القارىء على الوقوف من وقت الـى وقـت ليسـأل عـن الطريـق .

اما العقاد فهو كاتب ومفكر وشاعر ، وهو من عيون الادباء في هذا الجيل ، ولكن العقاد تعاوده آفة بغيضة هي حب النفس فهو لا يصلح

للحكم الصحيح في المذاهب الادبية الا اذا رحل في افاق التاريخ فان تعرض للعصر الحاضر ، وفي مصر ، فلن ترى له الا احكاما مشوبة بغبار الاهواء ، وما ظنكم برجل يؤلف كتابا جيدا عن شعراء مصر فيراهم جميعا من الاكابر ولا يستثني غير شاعر واحد ، هو شوقي .

والدكتور هيكل كاتب ومؤلف من الطراز الاول ، ولكنه يشرع في الكتابة والتاليف قبل ان يعرف جيدا ما يجب ان يقول ، ولهذا تروته يتعثر في فواتح مقالاته ومؤلفاته ، ثم يظهر له الغرض فيبني ويجيد .

اما المازني فحسابه عسير ، لانه يجهل مواهبه الذاتية ويطوف بشئون لا تتسق مع قدرته العالية على الادب الرفيع وقد راى المازني من التطرف ان يسخر من شاعريته فضاع بين الشعراء ، وساقه التطرف الى الياس من زمانه فتحدث عن عزلته ، العزلة الموهومة التي خلقها خلقا لتكون حواره كله في دائرة البيت)).هذا ما قاله الدكتور زكي مبارك.

وصمت العقاد سنوات حتى اتيح له ان يكتب مقالا يضع فيه الادباء على مشرحته : فقال : ((اما الدكتور هيكل فهو صادق التمثيل للسليقة المصرية العربية ، هذه السليقة لها خاصة الاستواء المهد التي تشبه طبيعة الارض في مصر ، فلا وثوب الى الافاق العالية ولا انقضاض الى الاغوار العميقة ، وفي قصته ((زينب)) ترى عنايته باحوال الريف ، اظهر من عنايته بالعوارض النفسية في المراة والرجل ، فالعهود والاحوال مقدمة عنده على الشخوص والابطال .

اما طه حسين فهو على الترتيب : كاتب قصة ، ومؤرخ للعصور الادبية ، وناقد للاداب والفنون اما اسلوبه الفني فهو اسلوبه المطبوع الذي يلائم الافضاء بافكاره واحاسيسه لانه اسلوب الاملاء الموقع الذي يجعل السكوت والابتداء فواصل ونغمات ، ولم تخل حياته قط من الترتيل منذ تعلم القرآن الى ان ادمن الاصغاء الى الموسيقى الاوروبية ، فهو يفكر ليملي ، ويملي ليزاوج بين الفواصل كما يزاوج بين الفترات الموسيقية . ومن عادة الاساليب المطبوعة انها عسيرة التقليد ، ولكن اسلوب طه من اسهل الاساليب تقليدا على المقلدين ، لان جانب الفترات الموسيقية منه يدخله في باب الصناعة وهي ميسورة التقليد .

وليست هذه هي ((النقيصة)) الوحيدة في هذا الاسلوب الفريد ، فهناك النقيصة الظاهرة بين الحزم والتشكيك ، ان احصيت الفاظ الشك في كلامه من امثال : ازعم ، وقد ازعم ، ولعله يكون ، ولعله لا يكون ، وربما ضحكت وربما بكيت ، وربما ضحكت وبكيت في وقت واحد ، فقد تحسبه من الشك لا يستقر على شيء ، وان احصيت التقريرات والتوكيدات في كلامه فقد تجده في طليعة الكتاب الحازمين او الحزامين من قولنا ((وان القول ما قالت حزام)) ، ونقيصة ثالثة حين يكتب المقالات ، انه يقتصد في العنوان حتى لا يجاوز كلمة واحدة وان يسهب في المقال حتى يفيض بالانهار ، ونقيصة غير هذه وتلك ، ان تقترن الروح الجدلية في عباراته بالروح العلمية ، سطر الى سطر ، وقضية الى قضية ، هذه تذكرك بالدراسة الاوروبية وتلك تذكرك بالدراسة الشرقية ، ولكنهما لا تندمجان ولا تغني احداهما عن الاخرى. ويأتي طه حسين الناقد بعد طه المؤرخ وطه صاحب القصة لان المدار في النقد كله على مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية . وليس نصيب الدكتور طه في هذه المقاييس باوفى نصيب .

اما المازني فادبه كله ادب اعتراف في محراب الفن لا في محراب الكهانة ، والاعتراف عنده اكثر من مسالة موضوع يختاره للكتابة فيه ، لانه في الواقع مسالة تكوين ، فكل من كان في بنية المازني الدقيقة فسبيله ان يتوفر ويصطنع الاخفاء والكتمان او تتغلب عليه الشيطنة فلا يرعه في ذلك كله ما يفيد ، ولا يزال يعمد الى الجهر والاعتراف كانه لا يحفل بالناس كيف يرونه وكيف يحكمون عليه ، واذا به قد بلغ في طريق قلة المبالاة ما يبلغه المتوقرون المتكتمون بالمبالاة ، ما الفرق بين ان يقول للناس انني اخفي عنكم نفسي لكيلا تستصغروني ومن يقول لهم : انا لا ابالي بكم فها انا قد ظهرت بينكم كما اشاء ثم طفولته التي لا تكبر ولا تتغير ، وفي الطفولة نزعة الى التحدث عن النفس ،والبوح بالخصوصيات والعموميات ، وفي المازني الان من الطفولة اكثر مما كان فيه يوم عرفته قبل ثلاثين سنة .وفكره الان اقل من فكره في تلك الايام ، الا اذا كان من زيادة الفكر ان يبوح الان بالحسنات والسيئات والمعظمات والمصغرات ، على خلاف الاطفال الاصلاء الذين لا يبوحون الا بما يوليهم العطف والثناء والتعظيم .

اما زكي مبارك الكاتب فانه لا يستغني عن زكي مبارك بحال من الاحوال ، اذا استغنى المؤلفون عن انفسهم في بعض الاحيان . لان زكي مبارك هو موضوع زكي مبارك الوحيد ، واذا كتب الف مقال في هذا الموضوع ، وقرأت منها واحدا ففي ذلك الكفاية كل الكفاية. ومن ذلك يبدو زكي مبارك اقل الكتاب شخصية في حياته الكتابية لان طابعه غير ظاهر في اسلوبه ولا في نشاته ولا في اثاره . وقد حضر الازهر والجامعة وجامعة من الجامعات في البلاد الفرنسية ، ولكنه لا يمثل الازهر ، ولا الجامعة المصرية ولا جامعة في فرنسا ايا كانت .))

وقد نشر هذا المقال ١٩٤٢ وحتى وفاة العقاد ١٩٦٤ لم يكتب طه حسين حرفا في الرد عليه ، الا بعد ان مات بعامين ، على النحو الذي عرف اخيرا من رأيه في العبقريات ، اما الدكتور زكي مبارك فانه قد اسرع بالرد على العقاد في جراة واضحة قال ((ان العقاد تلاطف في رجال وتحامل مع رجال ، ثم صال وجال حين تكلم عن الدكتور زكي مبارك ، كانه يجهل ان للدكتور زكي مبارك قلما ينسف به الجبال حين يشاء ، ولقد صبرت طويلا على تحامل الاستاذ العقاد وتركته يفرج عن حقده ، بمناوشتي ، من وقت الى وقت ، بعد ان اجليته عن ميدان الشعر والكتابة والتاليف ، ولكنه لم يعرف اني متفضل بالصبر عليه، ولم يفهم اني لو شئت لقومته باقل عناء. من ذا الذي يستطيع ان يضع توقيعه على كتاب النثر الفني او التصوف الاسلامي او ذكريات باريس، ولو عاش العقاد اطول من عمر نوح لما استطاع ان يؤلف مثل كتاب النثر الفني ولو منحته المقادير منحة البقاء الابدي لعجز عن تاليف كتاب التصوف الاسلامي . والعقاد الظريف يقول اني حضرت جامعة من الجامعات في البلاد الفرنسية فهل يجهل العقاد اني تخرجت من السوربون ، واني املك اللقب الذي يملكه منصور فهمي وطه حسين ، ما الذي يمنع العقاد من التخرج من السربون ان كان من اصحاب العزائم والمواهب ، السوربون باقية فحاول الانتساب اليها يا حضرة المفضال ان اردت ، فقد تصير دكتورا مثلي ، بعد حين ، وقد تصير دكاترة كما صرت انا ، ولن تستطيع .

ثم ماذا ، ثم اسال عن اللقب الذي خصك به الدكتور طه حسين حين جعلك امير الشعراء ، اتدري كيف ضاع منك ذلك اللقب ، ضاع لان الدكتور طه بشهادتك في مقالك لا يملك مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ، وكان المنتظر من فهمك وذوقك ان لا تبخل بالحاسة الفنية على من جعلك امير الشعراء ، وما المناسبة التي منحك فيها الدكتور طه هذا اللقب ، اتذكر تلك المناسبة ، لعلك كنت نظمت شيئا اسميته النشيد القومي فاين ذلك النشيد واين نصيبه من الحياة ، لقد مات في ساعة الميلاد لانه من نظم العقاد ، لقد زعم العقاد انني كثير التحدث عن نفسي ، واقول ان في نفسي كنوزا لا تخطر على بال الاستاذ العقاد ، العقاد الذي لا يصلح لشيء الا اذا (استانس) بما يقول الباحثون هنا وهناك، العقاد مترجم وانا مبدع،والفرق بعيد بين الترجمة والابداع.))

ومن مناوشات الهجاء والسخرية والدعابة ان يكتب احمد امين عن العقاد فيرسل ما يكتبه الى العقاد فيعلق عليه وينشر الراي والتعليق معا . يقول احمد امين ((اول ما يروعك في العقاد انه صارم قوي الجاش لا يابه للعواقب ، واصدق ما يكون في القتال اذا نازل من مس كرامته او جرح عزته ، اذ ذاك يكون اجرا من السيل ، واهول من الليل ، ينسى نفسه وماله وكل شيء حتى يسترد كرامته ويثار لعزته)).

ويعلق العقاد ((صحيح، ولكن ربما كان هذا العداء في الخصومة

لانني ابطأ فيها كل البطء واني اعتزل الناس ، ولا اسيء الى احد منهم ، فاذا جاءتني الاساءة التي اجتنبتها بعد كل ذلك ، ورأيت المسيء يتمادى فيها ، فلا جرم هو خليق ان يعلم ان الاساءة الى الناس شيء لا ينساه مدى الحياة .والحمد لله انني ما عاديت احدا مبدئا بالعداء ، وما عاديت احدا في أمر صغير يمسني ، وانما مدار العداء عندي على فكرة او مصلحة عامة .»

ويقول احمد امين «ان العقاد يؤمن كل الايمان بما يقول وبما يكتب ويضفي هذا على انتاجه الادبي لونا من البت والحزم ، وهذه الثقة بالنفس زادت عنده درجة فجعلته يرى ان رأيه صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي مخالفه خطأ لا يحتمل الصواب ، ومهما اتيت من البراهين على صحة رأيك الخالف فلديه من البراهين ما ينقضها ، وله قدرة فائقة على العناد ، ومهارة في صياغة ردوده حتى يكسب اكثر القراء ».

ويعلق العقاد على هذا الرأي فيقول «انا لا اوافق على كراهتي للتراجع في مواضع الخلاف ، واضيف الى هذا الاعتراف تفسيري كما اراه ، فانا مع المتثبت الذي لا يجادل للحق ولا للفهم ، ولكن للاعنات والارغام ، فليس من الانصاف عندي ان ينجح في غرضه ، وان اجزيه على سوء النية بالنجاح .اما مع المنصف فاني اذا آمنت بصوابه وخلوص نيته تراجعت وشكرت» .

ويقول احمد امين «ثم هو متكبر متواضع معا ، جريء خجول معا، امتزجت عنده الخصلتان مزجا عجيبا ، ولعل خجله هذا جعل قلمه اجرأ من لسانه» .

ويعلق العقاد فيقول : انني اذا اسلمت نفسي للغضب محمولا او غير محمول عدلت على قبول التبعة كلها كائنة ما تكون ، وقد يكون من حسن الحظ ان اعلم بعد الفاشية انني اسأت او تجاوزت الحد اثناء الغضب ، فليس ايسر علي من التراجع والاعتذار حتى اشعر بان الذي اسأت اليه راض ، وهنا اقول انني قد اخطىء في تقدير الاساءة والرضى ، وعذري في كل خطأ انني آدم من ابناء آدم وحواء» .

ومن هذه المداعبات ما نشر في احدى المجلات اول ابريل ١٩٤٥ عن وفاة الدكتور زكي مبارك وذلك قبل وفاته بسبع سنوات وقد نعاه الدكتور ابراهيم عبده فقال :

قضى اليوم المرحوم زكي مبارك فانهار بقضاء الله فيه ركن من اركان العلم والفضل والادب ، وقال انه قد فطر قلبنا بكاء الاستاذ احمد امين الذي كانت تربطه بالفقيد اوثق روابط الود والوئام ، والدكتور طه حسين فان الفقيد كان صديقا بارا به لم يسىء اليه مرة او يهون مكانه بين العلماء.وقال الناعي «كان زكي مبارك اديبا متواضعا لا يتحدث عن نفسه ويأبى على الصحف ان تذيع اسمه مهما كانت المناسبات وكان يكره الالقاب كراهية التحريم.»

وعلق زكي مبارك على خبر وفاته فكتب يقول «في اليوم الاول من ابريل ١٩٤٥ نعاني الناعي مداعبا في مجلة الاثنين ، فكانت فرصة اختبر فيها اخلاقي ولكن كيف ان الدعابة قضت ان يمشي في جنازتي احمد امين وطه حسين وعباس العقاد ، انها لدعابة قاسية ولكنها مردودة على ذلك الداعب الظريف فما يجوز وهما ان يشمت هؤلاء الاساتذة يوم اموت فما انصفهم قلم بمثل ما انصفهم قلمي . انا اشتهي ان يموت هؤلاء الاساتذة قبلي لارثيهم فاقول فيهم ما يجب ان يقال . ان هؤلاء الاساتذة كانوا البادئين بمخاصمتي ، وضمائرهم تشهد بذلك ، ولكني رأيت من الجريمة الوطنية ان اغض من اقدارهم فيضيع على القراء زاد نفيس من ادب هؤلاء الرجال» ثم قال «اذا كان للموت ان يهدم جسمي يوما فهذا سيقع ، وان كان الموت ان آرائي ستموت فتلك اكذوبة من اظرف الاكاذيب فآرائي ستسيطر على الناس الى اخر الزمان»

ويتصل بهذه المعارك والمساجلات ما يفهم من ان الصراع السياسي كان هو العامل الاول في هذه المعارك ولكني اعتقد ان الخلاف بين المدرستين الفرنسية والانجليزية في الادب العربي المعاصر كان ايضا من عواملها ودواعيها . غير ان هناك موقفين يستطيعان ان يكشفا لنا عن اعماق هذه الدوافع ، تلك هي الخلاف بين العقاد والرافعيين : امين الرافعي (١٩٢٣ - ١٩٢٩) ومصطفى صادق الرافعي (١٩٣٢ - ١٩٤٠) وكان امين الرافعي من ابرز الشخصيات السياسية التي مهدت للحركة الوطنية قبل الحرب العالمية وبعدها ، وكان من انصار سعد زغلول ، ثم اختلف معه على ما اطلق عليه اذ ذاك (تعديل الاساس) والاساس هو اساس المفاوضة الذي كان سعد قد التزم به قبل ان يلي الحكم فلما ولي الحكم عدله وخالفه امين الرافعي في ذلك فتلقى من العقاد كاتب الوفد الاول في ذلك الوقت اشنع عبارات النقد والتقريع والهجاء حتى انه كان يقول عنه مثلا الابله امين الرافعي ، وكان يصفه بالسفهاء وكان امين الرافعي يرد فيقول «ان عبارة (السفهاء) التي يتخذها (حضرة الكاتب) دليلا على ان المعارضة غير شريفة » . كل هذا حدث ولكن ما يكاد امين الرافعي يقضي ، حتى يهب العقاد فيكتب افتتاحية البلاغ رائيا اياه ، ناسيا كل خلافه وخصومته ، يقول «رأيت امينا قبل مرض الوفاة يمشي في الطريق على مهل فرأيت شبحا يتماسك ، وجسدا قد تهدم الا قليلا ، ونفسا تمشي في عالم وحدها ، وهي تشعر بعزلتها ولا تكاد تشعر بها من فرط الاطمئنان اليها ، وسيما السكينة والرضوان التي تحف بها ، فعلمت انني ارى امينا في قوة جسده ، وامينا في قوة نفسه ، ورأيت كيف يعمر الايمان الجسوم الفانية فهي منه في ملأ عزيز الحوزة ، منيع الجانب ، وعجيب ان يكون هذا امينا وهو بعد في ابان الفتوة وعنفوان الحياة .

نعم ، عجبت لهذا الهيكل البالي ، ان يكون هو هو ذلك الفتى الذي كنت اراه في مكتب (الدستور) او مكتب (اللواء) فياضا بالشباب مقبلا على الحياة ، في وجهه نظرة العافية ، وفي عينيه وميض الامل وفي مشيته صولة العزيمة والمضاء ، فكيف تبدل هذا ، وما جار الرجل على شبابه في غواية ، ولا اسرف على نفسه في مهلكة من مهالك الاعمار ، فقل اذن انه هو الجهاد كان وراء ذلك الجسد الناحل فاعجل اليه الهرم ثم اعجل اليه الموت وهو في مقتبل الشباب ، كان امين مؤمنا وكفى بالايمان عزاء في شقاء الحياة ، وكفى به شقاء في عالم الكفاح ، فلولا ايمان الرجل ما القى بنفسه حيث القى في ميدانه ، ولولا ايمانه لعز عليه الصبر على بلائه فالايمان عدوه والايمان حليفه ، وبالشقاء من يأتيه الكيد من حليفه الحميم . لم يكن له اراء تحتمل الخطأ والصواب ، وانما كانت له عقائد لا تترخص بشك ، ولا تأذن في هوادة ، وكان حد العقيدة عنده ان يجهر بالرأي فيما هو الا ان يخالفه فيه المخالفون ، حتى يتضح عنده ، ويشتد في تاييده وياخذ على المعارضين سبيل الشك في اصوله وفروعه .وحتى يلتقي الرأي بالايمان، ويمتزج اليقين بالبرهان ، فاذا بكل رأي كأنه دين ذو شعائر وفروض لا تختل منها شعيرة ولا تمس منها فريضة ..الخ».

اما خصومة العقاد مع مصطفى صادق الرافعي فقد كانت في مجال الادب ، وكان الرافعي فيها عنيفا لحد الخصومة ، بعيد المدى في الخصومة والهجاء . غير انه ما كاد يموت الرافعي حتى نشر الزيات حديثا كان قد جرى بينه وبينه جرى فيه ذكر رأيه في العقاد ، قال الرافعي «اما العقاد فاني اكرهه واحترمه ، اكرهه لانه شديد الاعتداد بنفسه قليل الانصاف لغيره .ولعله اعلم الناس بمكاني من الادب ، ولكنه ينفي علي قوة البيان فيتجاهلني حتى لا اجري معه في عنان ».

وقد اجاب العقاد على هذا الاتهام فقال : كنت اعلم ان الرافعي يقول عني احيانا غير ما يكتب روى ذلك محمد السباعي والاستاذ البرقوقي ، وهذا يوافق ما رواه الزيات وقد حرص الرافعي على كتمان هذه الشهادة ، فلم هذا الاختلاف بين السر والجهر ، او بين القول الخاص والقول العام ، وهذا هو ايضا موضع الاختلاف بين خطتي في الخصومة الادبية والخطة التي كان يؤثرها الرافعي وبعض الادباء . فانا اقول الرأي بلهجة ، واقوله بلهجة اخرى ، هذا قصارى ما استبيح

من الفرق بين الرضا والغضب ، والصداقة والخصومة ، اما الرأي في لبابه فلا يتغير ولا يتناقض . انني كتبت عن الرافعي مرات ان له اسلوبا جزلا ، وان له صفحات من بلاغة الانشاء تسلكه في الطبقة الاولى من كتاب العربية المنشئين ، وقلت انني انكر عليه فلسفة البحث وصحة المنطق ودقة القياس. وهبنا توافينا على المودة ، ولم نتفرق في الخصومة ، فهل كنت استطيع ان اسيغ القضايا المنطقية التي كان يستكثر منها ويمعن في الاتكاء عليها ، فانا قد شهدت له بالبلاغة الانشائية وانكرت عليه الفلسفة المنطقية لانني استطيع ان اسلكه مع الجاحظ وعبدالحميد ولا استطيع ان اسلكه مع كانت وهيوم، وابن‌سينا)).

وقال العقاد ((ان الخصومة الادبية لها مذهبان : مذهب الايمان بالفضل ، واخفائه عن عمد ، ومذهب الرأي الذي يتفق عليه الاصدقاء والخصوم ، وان اختلفا في لهجة الاداء وعبارة الثناء)).

ومن صور الانصاف في النقد يبدو المازني في موقفين : موقفه من عبدالرحمن شكري فانه بعد ان هاجمه في كتاب ((الديوان)) ١٩٢٢ عاد ١٩٣١ فاعترف له بالفضل واعترف على نفسه بالخطأ ، وغير هذا موقفه من ((شوقي)) ومن ((الرافعي)) .

فمن شوقي يقول المازني ((لم يتغير رأيي في شعره ، ولكن احساسي هو الذي تغير ، والرأي ثمرة النظر والتفكير والاحلام ، وعسير ان يتغير حالها ، اما الاحساس فله شأن اخر ، لقد كانت لي مع شوقي في حياته مواقف ذهبت دواعيها كلها ، والمرء يكون في فترة العراك ، غيره بعد السكون والاستقرار ، والاراء والمذاهب تقع بينها الحروب كما تقع بين الناس ، والحدة في الدعوة الى الرأي ، والعنف في التمهيد له ، والذود عنه من الاخلاص له ، وصدق السريرة فيه ، لا من العداء الشخصي ، وما تنقطع حرب الاراء والمذاهب في الدنيا ، والحياة لا تضيق بشيء ، وفيها متسع لكل صالح وطالح ، وقد يكون من الغرور ان لا نؤمن الا بآرائنا ومذاهبنا ، ومن العنت ان نحاول ان نمحق ما يخالف هذه الاراء ولا يساير هذه المذاهب)) ثم يصل الى قوله ((وعلى الرغم من انكارنا لاستحقاق شعره هذه المنزلة ، ما زالت مرتبته في الشرق رفيعة سامية)).

اما مصطفى صادق الرافعي فقد كان للمازني معه موقف مغاير تماما لرأي مدرسة الديوان في أدبه ، قال : ((اعترف بان موت السيد الرافعي رجني وزاد اعصابي تلفا ، فانا قد قرأت نعيه واجما ، طويل السهوم ، فاتر النفس ، مضعضع القوى ، وقد عزا اهلي هذا لما يعرفون اني انطوي عليه من الحب لهذه الاسرة الكريمة ، ولا نكران ان لكل من يحمل هذا الاسم حظا من فيض حبي للمرحوم امين الرافعي ، وقد يكون اهلي على صواب ، ولكني لا ادري وعسى ان يكون الامر كما قالوا ، غير اني لا ازال مرجوجا ، فعسير ان اهتدي الى علة هذه الزلزلة العنيفة ، ولم يكن السيد الرافعي من خلصائي ، وان كنت اعرف له قدره ، ولا ابخسه حقه ، ولكنه كان يزورني كلما خف الى القاهرة ، فيقضي ساعة او نحوها ، في حديث متقطع يطول فيه الصمت ، وتكثر الاشارات ، ويقل اللفظ ، فقد كان رحمه الله ثقيل السمع ، فكان هو يتكلم ، فاذا احتجت الى الاجابة كتبتها له اتقاء لعناء الصياح ، وقلما كان يدور بيننا بحث او يتصل حوار ، لهذا السبب ، ولكني كنت اسر بلقائه واشكر له حرصه على هذه الزيارة واقنع من الحديث بالاصغاء ، وكان رأيي فيه دائما ، انه اعلم اهل العربية بالعربية واوسع ادبائها اطلاعا على علوم الدين ، ولكنه كان لا يجيد غيرها ، ولا يستمد الا منها ، وانها لبحر زاخر ومحيط اعظم ، ولكن هناك بحورا اخرى ، ومحيطات لا عداد لها ، ومن هنا ضاقت دائرته ، غير انه على هذا كان بارع الركض ، في هذه الحلبة المحدودة ، واحسبني لا ابالغ حين اقول ان له بين اثاره ما لا يرقى اليه قلم ، قديم او حديث ، وان له صفحات عديدة في كل كتاب يبلغ فيها ذروة البلاغة ، واحسب ان هذا شانه كلما ارسل نفسه على السجية ، واجتنب التعمل ، واتقى الصنعة ، وكان عيبه ان سعة علمه باللغة تغريه وتقلبه ، وان جموح خياله يشط به فيجيء الكلام ملتويا معقدا ، والمعاني بعيدة مستكرهة ، ويحس القارىء انه يتعب في استخلاص المراد ، والاهتداء الى المقصود ، حتى قال عنه كاتب كبير لا داعي لذكر اسمه انه يكتب (بالبرجل) لا بالقلم ، قال هذا مازحا ولكنه جاء مزحا مبطنا بالجد والصواب ، على ان هذا التعقيد في مواضع كثيرة كان من فرط الغنى والخصب ، لا من الفقر والجدب ، وللثراء عيبه ، كما للفاقة ، والخصب يكون آفة ، كما يكون المحل . وقد كان رحمه الله متتابع الانتاج لا يكاد يلقي القلم من يده ويستريح، واحسب ان هذا هو الذي قتله ، فان لطاقة الجسم حدا ، ومن مزاياه انه كان جريئا ، وكان رجل كفاح ، يأبى ان ينهزم ، ولا يزال يكر في الميدان على خصمه بكل ما تصل اليه يده من ضروب السلاح ، ولا يتعب ولا يتردد ، ولا يلقي القلم ، ولو قالت الدنيا كلها انه انهزم . ومثل هذه الطباع تغري بالعنف ، وتخرج المرء عن طوره ، وتنسيه واجب القصد ، والاعتدال ، وتفقده الاحساس بالتناسب ، ولكن عنفه في الجدل كان من فرط اعتداده بنفسه وثقته بقوته وايقانه طول باعه. وكان يوصف في حياته بانه حجة العرب ، ولا شك في ذلك ، وقد ذهب في سبيل من غبر ، ففي وسع من كانوا خصومه واوداءه على السواء ان يقروا له بحقه الصريح ، ان غير قليل من ادب الرافعي سيبقى على الايام ما بقي للادب العربي ذكر ومقام)).

وعارض المازني تناول حياة الاديب الخاصة وهاجم توفيق الحكيم حين اعتمد على بعض قصصه التي يكتبها بضمير المتكلم على انها تمثل حياته الخاصة فقال ((انا لا ارتاح الى هذا التناول لحيوات الناس الخاصة ، وليس كونهم ادباء او مشهورين لسبب ما ، بمجيز في رأيي ان يجعل من حياتهم الخاصة واحوالهم الشخصية (معرضا) ، واذا كنت اروي كثيرا مما اكتب على لساني ، واورده بضمير المتكلم ، فليس معنى هذا ان ما ارويه وقع لي وانما معناه اني ارتاح الى هذا الاسلوب في القصة ، واراه اعون لي على تمثل ما احاول وصفه وتصويره ، فليس فيما اروي شيء شخصي ..))

ولقد حاول المازني في اكثر من مناسبة في المرحلة الاخيرة من حياته ان ينكر ادبه وشعره بالذات في المرحلة الاولى من حياته يقول عام ١٩٣٣ ((اما اني شاعر او غير شاعر فاني اعرف بنفسي ، وصحيح اني حاولت في صدر ايامي ان اخفف من الم خواطري بالالحان ولكني عييت بالشعر وبرحت بي مطالبه ، وعزني ان لا اجد للعاطفة التي تستولي على نفسي ، لغة مستوية مثلها في هذا التدفق ، فنفضت يدي يائسا ، لانني لم اشعر بالرضى قط عن شعري ، ولم اجد ولا مرة واحدة ، ذلك الروح والخفة اللذين يجدهما المرء بعد ان ينظم احساسه، فاضر ذلك بجسمي ونفسي جميعا ، وبقيت كالحامل الذي لا تلد فهي محتاجة الى الجراح ، واني لا اتكلف ولا اتواضع اذ اخرج نفسي من عداد الشعراء فما يهون على النفس ان يعريها صاحبها من مزية او فضل، ولكني راجعت شعري بيتا بيتا ، وعاما بعد عام ، وقسته الى ما كان في نفسي ، والى الشعر كما اتمثله في خاطري والى شعر الشعراء من عرب وفرنجة ، فسخطت وانفت ، ولعلي اذا ارتقى بي العمر سنوات اخرى اسخط على كل ما كتبت ايضا .))

وكما هجر المازني ميدان الشعر ، هجر ميدان النقد عام ١٩٣٧ ، وكان في نقده ساخرا ابلغ السخرية حتى دارت بينه وبين طه حسين مناظرة حول (النقد والطربوش) وما يتصل بذلك مما ذكره المازني في نقده لكتاب ((النثر الفني)) للدكتور زكي مبارك ، مما ملأ صفحة من البلاغ ، دون ان يقول كلمة واحدة عن الكتاب ، فهو قد اهدى اليه الكتاب ورآه ضخما ، ومفصصا ، فأرسله الى المجلد ليجلده ، حتى يستطيع ان يقرأه ويحمله ، وتأخر المجلد ، واستحثه مبارك في الكتابة ، وتأخر المجلد عن ارسال الكتاب ، ثم هو تحت ضغط الحاح

ذكرى نجيب الريحاني

القصيدة التي ألقيت في الشهر الماضي بمسرح الريحاني احتفالا بذكراه السابعة عشرة

أيها الساحر من تلك الحياه … بلغ السخر من الدنيا مداه !
ذلك القلب الذي اضحكته … ما الذي أبكاه ؟ قل لي : ما دهاه؟
لم يكد يطفر في فرحته … لحظة ، حتى استهلت دمعتاه
آه من فعل العشيات بنا … آه من صرف الليالي ، ثم آه!

أيها الراقد ! ما عودتنا … رقدة الليل ، ولا طيب كراه
كنت فيه ومضة بارقة … كنت والله ضياء في دجاه
تمزج الجد بهزل ، مثلما … يمزج الدهر مع السعد شقاه
ليس يكفي جانب من مشهد … لا يتم الشيء الا جانباه
مأتم الايام ، في أعراسها … ونعيم العيش يبدو في أساه
تنقل الدنيا على حالاتها … وترينا كل ما كنت تراه
لابسا في كل حال ثوبها … بالغا في كل دور منتهاه
فنرى الرحمة قد مثلتها … حينما مثلت طغيان الطغاه
ونرى العدل على أكمله … حينما يشتد بالظلم أذاه
ونرى في كل ضيق فرجا … ونرى الحزن ابتساما في الشفاه
ونرى آلامنا نفرها … أمل العيش ، وروتها يداه
ونرى الصوت الذي يوحشنا … نغمات ، هن من صوت الاله

أيها المضحكنا ، أبكيتنا … هي كأس يتعاطاها السقاه
قد شبعنا امس ضحكا عاليا … فلماذا الخوف مما قد عداه ؟
أنت في فنك صرح شاهق … قد بلغنا منه في الفن ذراه
فيلسوف ساخر مقتدر … كامل العدة ، موفور الاداه
لو تراه لم تقل في مسرح … تلتقي أخشابه وقع خطاه
انه كان أصيلا ، مبدعا … تلتقي الاكوان فيه ، والحياه

انما المسرح فن زاخر … هو صوت الكون او رجع صداه
في المآسي والملاهي تلتقي … روعة الفن وأطياف رؤاه

القاهرة … محمد عبدالغني حسن

الدكتور مبارك يذهب بنفسه الى مكان المجلد في احدى الازقة ، ويركب الترام ، ثم يسقط المطر ، ويتوحل قدمه ، ويسقط طربوشه في المطر، ثم لا يتوقف عن الذهاب الى المجلد فيجد انه لم يتم بعد تجليد الكتاب .. وهكذا يسخر المازني من المؤلف والقراء وكل شيء غير انه لم يلبث ان ضاق صدره بالمؤلفين وبالنقد فأعلن اعتزاله للنقد .قال «كففت عن النقد لاني اردت ان اريح نفسي من عناء باطل.. واذا كان الناس لا يرضون الا عن المدح بالحق او بالباطل فما قيمة النقد ، ولم لا اريح نفسي واريحهم وافرغ لما احب . فلما انصرفت عن النقد صار اصحاب الكتب يعدلون بها عني فأتشهد واحمد الله ، وقلت لنفسي : لماذا ينتظرني الناس ان اتناول كتبهم ولا اراني انتظر من احد ان يكتب عما اخرجه حين اخرج كتابا ، اترى هذا عملي وانا لا ادري ..»

وبعد فان بعض حلقات هذه المعارك ترسم الرد على تساؤلات الحلقات الاخرى ، فما موقف المازني من شوقي ، الا رد على موقف العقاد منه ، وما كلمة المازني عن الرافعي الا (مكره) موجهة الى العقاد، وما رأي واحد من هؤلاء في كاتب ، الا مواجهة لكاتب اخر ، فهي حلبة رياضة كبرى ، تجري الكرة فيها من قدم الى قدم ، تظهر شيئا وتخفي شيئا ، وهي صراع وجدل ، وسخرية وهجاء ، وتبادل للاتهامات والاراء ، يدل على مدى خصوبة الحياة الادبية ، وتعارضها في نفس الوقت ، فما هناك وحدة فكر ، وما هنالك خطوط عامة يلتقي عليها الادباء ، وانما هي حركات يد ورجل تقذف بالكرة شمالا ويمينا ، فيها طرافة وتسلية وفيها بحث عن الشخصية ، وعن النفس ، ومحاولة لوضع (الاساس) للفكر العربي المعاصر .

القاهرة … انور الجندي

ضوء احمر ، بخور هندي وموسيقى كلاسيكية ... جوه لا يتغير ! اغلق بابه وركل بصرامة الجندي الاشوري عادات الناس وتقاليدهم ، وتلاشى في ضوئه وبخوره وموسيقاه . كثيرة هي العلامات الفارقة في سجله فان لقيه الصغار صاحوا هذا هو !! وان رآه الكبار نظروا اليه وتهامسوا فيما بينهم ! انهم يعرفون غرابة اطواره وفلسفته في الحياة والا لماذا يعيش وحيدا بين ضوء احمر وبخور هندي وموسيقى كلاسيكية ؟ !

كان يضحك من نفسه ومن الناس ان جمعته الصدفة وجالس بعضهم في بيوت اصدقائه الثلاثة ...

الم يتخاصم مرة مع سيده في بيت صديقه الاديب وقد اعترته نوبة من الضحك عندما كانت تتكلم ! وصديقه الناقد كم توسل اليه ان يخفف من ثورته على رجل « كريه » على حد تعبيره ، جلس قبالته على الطاولة في احدى السهرات .

الاطفال احب شيء الى نفسه.. فكم شاركهم لعبهم ولهوهم وتوسد اسرتهم ذات الحواجز وشاهد معهم ثياب العيد في بيت صديقه الشاعر.. هم دنياه كان اذا شاهدهم في الطريق اندس بينهم ولاطفهم واشترى لهم الالعاب والحلوى . « هؤلاء الصغار يزينون الحياة ، انهم خامة بيضاء لم يلونها زيف الناس بعد . عيونهم بريئة لا تتغير مع كل رفة جفن..

ما قصد مرة الى المدينة ، وكان يعيش في احدى الضواحي ، الا وتخاصم مع سواقي السرفيس او تجار الحوانيت التي يشتري منها قوته . فيرجع الى صومعته والقرف يشيع في نفسه «اناس كريهون ، لا يمكن البقاء بينهم » ويتقوقع فوق الوانه يصب فيها النقمة ويشوه بها الوجوه . كان لا يفقه معنى لوجوده فهو لم يتجانس حتى مع ابويه واخوته . ضجت الثورة في نفسه قبل ان تضج فيه رجولته ، فترك بيته الوالدي وتشرد ولما يزل في الثالثة عشرة من عمره . لم يستطع يوما ان يحب امه لنصحها الدائم له ولسعيها كي تقربه من اصطلاحات البشر . « هؤلاء البشر الذين يدأبون نهارا وليلا لجمع القروش ، فالحياة عندهم سواء في الشتاء والصيف والخريف والربيع. يسبحون في البحر يعومون على سطحه ، يبتردون في مائه دون ان يغوصوا مرة واحدة في اعماقه . يديرون اسطوانات الموسيقى فيرقصون ويهزجون دون مبالاة لتفهم التجربة التي عاناها الفنان . يشمون الازهار ثم يدوسونها كانها لم تزين يوما صدورهم او تعطر بيوتهم . مساكين ! حياتهم فارغة راسهم فارغ جيوبهم ملأى وعيونهم جائعة .



بقلم ادبل الخشن

يسكنون القصور محاطين بالخدم ومشيعين بالحرس ، يمتطون افخم السيارات يؤمون فنادق الدرجة الاولى يعيشون للبذخ والترف والملذات وفي الليالي الحالكة عندما تطبق اجفانهم الاغفاءة الطويلة لا يبقى منهم دليل على وجودهم . » اعصابه تتمرغ بالنقمة ويحس الالتهاب في صدره ، فتجمد يده على القماشة وتتراقص امام عينيه الف صورة وصورة تارة حمراء وتارة صفراء . « آه هم يلاحقونني الى البيت هؤلاء البشر الكريهون انا لست منكم اني ابصق عليكم !»

ويأخذ سكينا للرسم امامه يطعن بها الصور المتلاحقة بضراوة ويغمض عينيه بكلتا يديه . ان منظر الدم يرعبه ، نفسه لا تتحمل رؤية القتلى ... ويترك الى حيث يرتفع صوت الموسيقى في الغرفة الثانية ،فيزيد ارتفاع الصوت ... وكشبح لولبي صاعد من حريق كبير اخذ يرقص ويتعالى ويرفع يديه قافزا في الهواء وهابطا الى الارض حتى خارت قواه وتيبست حنجرته فانبطح على الارض واخذ يزحف الى الباب يفتحه ليرى من يتجرأ على ازعاجه وهو في غمرة من النشوة ... طوابير الصور التي مزقها اصطفت جميعها على سفرة الدرج ... «مجنون... لا تقيم للناس وزنا ولا تحسب للتقاليد حسابا » . الحي كله استجار زاحفا اليه . الارامل الثلاث اللواتي يسكن في الطابق الاسفل خرجن يشتمنه ويدمغنه بالنعوت القاسية . ارادوا جره الى السجن ... ولكن « لا فالسجن ليس بارهب من صومعته»، لم ينبس بحرف ... شفتاه مخدرتان ملتصقتان وقلبه ينبض بشدة واغلق بابه وغرق في نشيجه ودموعه . لقد اخترقت طعناته احب لوحاته الى نفسه . وافاق وفي جوه الذي لا يتغير ابدا ضوء احمر — بخور هندي وموسيقى كلاسيكية .

وكالبركان الذي قذف بكل حممه بل كالمدينة المهدمة بعد غارة مدمرة، استفاق في الصباح . كان هدوءه اكثر من العادة . لقد تلاشت من نفسه كراهية البشر انه يتمتع بصفاء غريب . «اني سعيد اليوم ! اشعر براحة عجيبة ..»

خرج الى الشرفة وكان الفجر لا يزال متسربلا بغلالة رمادية شفافة . « ما اجمل الطبيعة . الهواء منعش بارد . الاغصان تهزج فتحدث خشيشا لطيفا . واسراب العصافير راحت تترك مضاجعها لتعتلي منابرها على رؤوس الاشجار وتبدأ بالزقزقة.



هوذا بائع الحليب يقود شرذمة من قطيعه متجولا بين البيوت ليوزع الحليب الطازج . وذلك الرجل الذي اعتمر فرشا من الكعك الاسمر الساخن وقف في ساحة القرية يبيع الصغار الدوائر المعطرة بالزعتر ، «ليتني املك هذا الفرش فاوزع الكعك على هؤلاء الصغار بلا ثمن . يكفيني ان ارى بريق عيونهم والفرحة المتسللة الى قلوبهم . آه ليتني تزوجت لكنت اليوم ابا لعدة اطفال. هؤلاء الباعة التجار ما اكرههم .. لم يفكروا مرة ان يمنحوا هدية لطفل . كم من مرة خدعوه فقبضوا منه الثمن مضاعفا ، او حرموه الكعك الساخن لان دراهمه لا تكفي فاعادوها اليه وحملوا بضاعتهم وانطلقوا ينادون تتبعهم نظرات لاهفة وقارب متألمة .»

ساحة القرية امتلأت بالناس ، كل يتجه حيث يعمل . ووصل العمال الذين يشتغلون في بناء ناطحة سحاب بالقرب من بيته تجمعوا وكل منهم يتأبط صرة بيضاء ، « كانت تحوي اكثر من طعام — اكثر من زاد . انها سر الايدي الناعمة والقلوب المحبة ترافقهم الى عملهم وتخفف عناءهم كما تسعد جوهم عندما يعودون الى بيوتهم» ... « انا ! انا الوحيد الشريد الذي لم انعم بجو العائلة ، لم تمسح جبهتي يد ناعمة . لم احسس يوما دفء العاطفة وعذوبتها المترقرقة ... تبا له من شخص كريه والد خطيبتي ... اين انت الان يا فتاتي — يا اول حب في قلبي ! ابوك التاجر لا يعرف سوى عد الدنانير «ديناره تركي لا يتبدل» ، ابوك لم يفهمني لم يتعرف الى خفايا شخصي — ارادني كالناس تاجرا متلاعبا اربح الالوف واضيع نفسي — ابني بيتي على انقاض انسانيتي واطليه برماد عبقريتي... لم يرض بزواجي منك. لقد اخافوه مني... اتهمني بالضياع والجنون عندما عرف بالضوء الاحمر والبخور الهندي والموسيقى الكلاسيكية » .

« وانت يا ابنة قريتي الوادعة التي يموج في عينيك صفاؤها ، هلا نسيت حبنا ولقاءاتنا فاذعنت لمشيئة أبيك . عيروك بالخاتم الذي قدمته لك انه لم يكن من اللؤلؤ الحقيقي فآمنت بهم وكفرت بحبي . لم تأبهي بالعقيق المهرق على الخامات فنبذتني وتنكرت لي !! وذلك الدفتر كيف نسيته وحروفه تلهث بنبضات قلبك وقلبي.» « كفرت بالمرأة ، كفرت بالحب والقيم ... لقد تساوت شرور الانسانية في نفسي كل شيء فاسد كريه انا لست مع الناس في شيء . سأمحو اسمي من دفتر السجلات وامزق هويتي واضرب في بقاع الارض على ظهر احدى البواخر . نكرة اطوف الصحارى والادغال واهيم وحيدا شريرا لا انتمي الى اخوة ولا يحزن لفراقي اهل » .. «انا نفسي لا افهم نفسي. لا ادرك مدى هذا القلق والتزعزع ، لماذا استفيق في الصباح سعيدا مزهوا واتوسد فراشي والحقد يشيع في نفسي والكراهية تطفو على فمي . وحدتي هي سبب شقائي ... زواجي مستحيل ... ما من احد يسهل عليه ان يحيا معي حتى الفتاة التي احببت ... ان جوي مشحون بالتوتر والقلق ونفسي يخنقها الضجر ... منذ زمن لم ار اهلي — خطيبتي قبعت في بيتها وتجاهلت حتى اسمي — اصدقائي القليلون بداوا يتخلون عني ..»

واحس بالتخاذل امام هذا الضياع. لقد هدمت قواه هذه الخيبة فأثخنت نفسه باعمق الجراح . نسي وجوده فتناثر كنتف من الغيم وراء افق رمادي توشحه خطوط حمراء . واستفاق هذه المرة من غيبوبته بنواح خافت ... يلهب نفسه بالندم ويهدهدها بالحنان والشفقة . احس بالسعادة تتغلغل في اعماقه بعد تلاشيه وذوبانه ... وانبثقت فيه طاقات جديدة اعادت اليه الرغبة بالحياة وغمرته بالتفاؤل . الشمس تسطع — والعصافير تزقزق والهدوء يخيم حول بيته كم هو سعيد بهذه الوحدة ... ومسح عن خديه دموع الغبطة وانحنى فوق قماشته يؤنسه الضوء الاحمر والبخور الهندي والموسيقى الكلاسيكية ...

اديل الخشن

مبهمات

★

أضعتك ام ضيعتني منايا — وغبت وكان لقانا الحنايا
يشاغلني انني ان فقدتك — لن يتغير في شقايا
وان الوصال سواء بوجدي — غمرتك ام ضم وهمي هوايا
معذبتي هل تبدل سحر — المواعيد حتى شجتك رؤايا
وكيف لرجعك ان لا يلف — النداءات بح بها مرتجايا
ويا هدأتي حين يحلو ضياعي — واصحو الى ما يبكي هنايا
أريد اذا ما اتينا بعمر — جديد فخليك لي منتهايا

جورج رجي

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي
من «العروة الوثقى» في لندن

* * *

لو سألت احدا من اصدقائك او من سواهم : ما هو العقل؟ او ما هي الفضيلة ؟ او ما هو الحق ؟ او... او... الى آخره ، لكان هذا المسئول احد اثنين : اما انه يبتسم ، علامة على سخف هذا السؤال ، اذ ، في رايه ، من لا يعرف العقل او الفضيلة او الحق ..؟ واما ان يحاول ان يضع لك تعريفا بحسب ما يرى . وقلما تجد احدا يقول لك : لا ادري ، لان هذه الامور المسئول عنها امور متداولة على اللسان سائرة في مفهومات الناس بحيث ان السؤال عنها من قبل تحصيل الحاصل اذ ليس المسئول بأعلم من السائل — وهكذا .

ولكن الكلام جدي — ما هو العقل ؟ يقول العرب كعادتهم في استعمال التفسيرات اللغوية : العقل مشتق من العقل وهو الربط والاحكام ، كما قال بعض الحكماء : اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل . وقيل ان العقل ماخوذ من عقال البعير يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل . واختلف العرب في التفريق بين العقل والنفس الناطقة . ففي «التعريفات» : العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله ، وهي النفس الناطقة التي يشير اليها كل احد بقوله : انا .وقيل خلاف ذلك : العقل قوة للنفس الناطقة .ومعنى ذلك ان القوة العاقلة امر مغاير للنفس الناطقة ، وان الفاعل في التحقيق هو النفس ، والعقل آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة الى القاطع . وقيل خلاف ذلك : العقل والنفس والذهن واحدة ، الا انها سميت عقلا لكونها مدركة ، وسميت نفسا لكونها متصرفة ، وسميت ذهنا لكونها مستعدة للادراك . اما تعريف «القاموس» للعقل فهو مثال على التعريفات التي لا تؤدي الى نتيجة حاسمة كالكلام المركب الغير المفيد ، فهو يقول : — «العقل هو العلم او (العلم) بصفات الاشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها ، او العلم بخير الخيرين او شر الشرين ، او مطلق لامور ، او لقوة يكون بها التمييز بين القبح والحسن، ولمعان مجتمعة في الذهن يكون بمقدمات يستتب بها الاغراض والمصالح ، ولهيئة محمودة للانسان في حركاته وكلامه .» وقد يحسن هنا بالقارىء الكريم ان يسال نفسه ماذا فهم من هذا التعريف الطويل؟ ومن اراد الزيادة من ذلك فليرجع الى كتاب عن المصطلحات الفنية عند المسلمين نشر في الهند سنة ١٨٦٠ وحرره المولوي عبد الحق والمولوي غلام قادر . ولكن الزيادة من ذلك تؤدي الى الدخول في موضوعات شائكة ومآزق ضيقة لا يزال العلماء في الغرب والشرق على السواء يعانون من عقباتها ومشاقها.

ولعل القارىء الكريم يذكر شيئا مما قلناه سابقا عن انفصال العقل عن الجسم في راي ديكارت وعن سعي لايبنتز للجمع بينهما.ولعله يذكر بهذه المناسبة قول هيكل ان كل شيء في هذا الكون اساسه العقل ، وكذلك قول باركلي من ان العقل هو الموجد للاشياء وليس لهذه الاشياء من وجود مادي خارج العقل.ولعله يذكر ما هو اهم من ذلك وهو فكرة الماديين وعلى راسهم في الوقت الحاضر الماركسيون الذين يقولون ان المادة هي اساس العقل وان الدماغ هو اداة العقل .

ومهما اختلف الفلاسفة والعلماء في حقيقة العقل وفي علاقته بالجسم ، فان الامر الذي لا مراء فيه ان العقل شيء نشعر بوجوده ونشعر باننا نستعمله احيانا عند التفكير . فبأي شيء نعرفه ؟ ولكن قبل ان اتقدم على التعريف يجب ان نفهم اولا ماذا نعني بكلمة (العقل) ، لان هذه الكلمة ، اذا اريدت ترجمتها الى اللغة الانكليزية مثلا فانها تعني واحدا من اربعة اشياء : الاول Mind والثاني Reason ، والثالث Intellect والرابع Intelligence واكثر المترجمين للفلسفة الاسلامية ، كفلسفة ابن سينا مثلا يترجمون العقل اما بكلمة Intellect واما يترجمونه بكلمة Intelligence . وتعني كلمة (العقل) في الاستعمال العربي ايضا اما Mind واما Reason .ولنترك الان الكلمتين الاوليين ولننصرف فقط الى Mind و Reason فالتعريف الفلسفي المعروف الان هو ان العقل بمعنى Mind هو جوهر ميتافيزيقي تشترك فيه جميع العقول وبه يتميز عن المادة او الجوهر المادي .وعلى هذا فان العقل بهذا المعنى له مفهوم عام ، بخلاف النفس التي لها مفهوم خاص بالشخص المعين دون غيره . والعقل بهذا المعنى خلاف المادة ، كما ان النفس خلاف الجسم . فالعقل هو النفس اذا نظرنا الى النفس نظرة تجريدية عامة دون تخصيص بشخص معين ، والنفس هي العقل اذا خصصنا العقل بشخص معين . ومعنى Mind في الاصل في الانكليزية مشتق من معنى القصد او الارادة ، في حين ان معنى النفس مشتق من القول او الكلام . فالارادة هنا هي العلامة الفارقة للعقل ، والكلام هي العلامة الفارقة للنفس .

اما كلمة Reason فقد عرف مدلولها في السابق تعاريف مختلفة . منها انه ملكة الفهم ، يتميز بها الانسان عن الحيوان . فالانسان يعرف ويفهم ولكن الحيوان يعرف ولا يفهم .ومنها انه الملكة التي تعتبر الصفات بالانفصال عن الموصوفات او انه القوة التي تكون الافكار العمومية وتستعمل اسماء المعاني والعبارات التجريدية ، او تميز

بين الاشياء في اختلافها او في تماثلها ، او تنتزع الاستدلالات . ومنها انه القوة القادرة على السير من المقدمات الى النتائج والحكم على الاشياء والمحاكمة العقلية لمعرفة الحق من الباطل او الصدق من الكذب . ومنها ايضا انه القوة العاقلة بصورة عامة التي تختلف عن ملكات المعرفة الاخرى كالاحساس والتخيل والذاكرة . فالعقل هنا هو بمعنى العقل المنطقي بصورة عامة ، ومن مميزاته انه يستخدم التحليل والاستنتاج والاستقراء ويكون مستعدا دائما لاكتشاف العلاقات بين الاشياء او بين الافكار ، على اساس الحقائق الثابتة دون الاستناد على اشياء لم تثبت صحتها بالواقع . فنحن نستعمل كلمة (العقل) في هذا المقال بهذا المعنى ، وهو قريب من معنى الكلمة الانكليزية Rationality او الكلمة Rationalism والكلمة الثانية اي Rationalism هي التي سأصرف الكلام اليها ، بالنظر الى اهميتها التاريخية وبالنظر الى الصلة الوثيقة بينها وبين Reason لان الكلمتين من اصل واحد لاتيني وهو Ratio التي هي من Reor وهي التفكير . واقرب ترجمة في رأيي لكلمة Rationalism هي «مذهب تحكيم العقل». فما هو هذا المذهب وما معناه وكيف نشأ ؟

يقولون في بعض الاحيان ان «الاعتزال» الذي ظهر في الاسلام هو «مذهب تحكيم العقل» الذي ظهر في اوروبا .ولا نريد الان ان نقايس او نقابل بين المذهبين ، لان الغرض هو عرض صورة تاريخية موجزة عن نشوء هذه الحركة في اوروبا ، واعني حركة الابتعاد عن الايمان بالمنقول والاقبال على الايمان بالمعقول . ويرجع تاريخها الى ايام الاغريق القدماء ، منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ابتداء من الفيلسوف بارمنيدس واتباعه من بعده ، ثم الى فيثاغورس وافلاطون وارسطو ، ثم الى الافلاطونية الجديدة وآخرا الى المذهب المثالي Idealism وقوام هذا المذهب الاعتماد على العقل المنطقي في التفكير وفي محاكمة الاراء والمعلومات للوصول الى نتيجة منطقية. ويتضمن ذلك بطبيعة الحال نبذ التعصب والعناد وكبت العاطفة واهمال الترجيمات والتخرصات والتظنيات وعدم الاخذ بالاقوال والمعتقدات التي لا يقوم على صحتها اي برهان ، مع الاستعداد لقبول هذه الاقوال والمعتقدات اذا ثبتت صحتها بالدليل العقلي . واذا نظرنا الى ان المجهود الفكري البشري كان موزعا بين معرفة هذا العالم من جهة (وهي التي نسميها بالعلم الطبيعي) ومعرفة الخالق لهذا العالم والتفكير في صفاته وتقديراته (وهي الدين) وجدنا ان تحكيم العقل انشطر الى شطرين : شطر يعمل مع العلم وشطر يعمل مع الدين .فالشطر العلمي مفهوم لا يحتاج الى كبير تفسير ، ولكن الشطر الديني توسع حتى شمل ميادين اخرى كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم الاخلاق وغير ذلك . ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان العقل في القرون الوسطى ، كما ذكرنا ذلك مثلا ، كان اداة يستعين بها الفلاسفة عموما ورجال الدين خصوصا لتدعيم الدين ، كما جرى عند علماء الكلام عند المسلمين . وبقي هذا التعاون قرونا عديدة الى ان اخذ الشك يتطرق في اوروبا الى حقيقة الايمان والى صحة الاديان . وقد يجد القارىء لكتاب «تاريخ حرية الفكر» لمؤلفه بيوري Bury صورة موجزة لتطور حركة تحكيم العقل من الناحية الدينية بصورة خاصة وذلك من الوقوف على عناوين الفصول في الكتاب . فهذه الفصول مرتبة بهذا الترتيب : العقل الحر عند الاغريق والرومان ، العقل السجين في القرون الوسطى ، ظهور التسامح الديني ، نمو حركة تحكيم العقل ، تقدم حركة تحكيم العقل ، تبرير حرية الفكر . والكتاب المذكور يهتم بحركة تحكيم العقل من الناحية الدينية اولا ، ثم من النواحي الاخرى . ويفرق المؤلف بين تحكيم العقل وحرية الفكر ، فيرى ان تحكيم العقل خاص بالميدان الديني ، في حين ان حرية الفكر اعم من ذلك ، ولكنها متصلة اتصالا وثيقا بالنزاع مع الدين .ومن اعظم الفروق بين العقل والسلطة ، في رأي المؤلف ، ان العقل ليس له الا سلاح الحجة والجدل الذي لا يضر بالعقل ولا بالجسم في حين ان السلطة لا سلاح لها الا القهر والعنف والاضطهاد والنبذ وما الى ذلك. وهو يرى ايضا ان الاضطهاد الذي كان يضطهد به العقل والعقلاء على ايدي اصحاب السلطة الدينية والزمنية من قبل لا يزال قائما في هذه الايام ، ويدل على قيامه الاستهانة التي يستهان بها في الوقت الحاضر رجال الفكر والفهماء ، حتى ان كلمة (المفكر) اصبحت في كثير من البلاد سبة ومعرة .

وفي كتاب بوبر Popper عن المجتمع الحر واعدائه تعريف مفصل عن معنى تحكيم العقل ومعنى عدم تحكيم العقل . وتعريفه لتحكيم العقل واسع يشمل التفكير على نطاق واسع والمشاهدة والتجربة على نطاق اضيق من ذلك، فالتعريف من هذه الناحية شبيه بما يقوم عليه العلم النظامي من مشاهدة وتجربة ومن تفكير ايضا . وتحكيم العقل عنده معناه اللجوء الى العقل لحل ما يمكن حله من معضلات عديدة ، اي باللجوء الى الفكر المجرد والتجربة دون اللجوء الى الانفعالات والاهواء . ويمكن ان يقال بناء على ذلك ان تحكيم العقل هو الاستعداد للاستماع الى الحجج الانتقادية وللتعلم من الاختبار ، او هو الاقرار بامكان خطأ رأيك وصحة رأي خصمك ، بحيث انك تكون مستعدا مع خصمك للوصول الى رأي يكون اقرب الى الحقيقة .وهذا يعني ضمنا ان بهذا الموقف المعقول وبالحجة والاختبار يمكن الناس ان يصلوا الى اتفاق فيما بينهم حول كثير من مشكلاتهم المهمة .وهذا التعاون بين الناس في تحكيم العقل فيما بينهم شبيه بالتعاون في الميدان العلمي. وليس المهم في هذا التعاون الاشخاص المتعاونين ، وانما المهم هو الحجج والبراهين العقلية التي يقدمونها ويدلون

بها ، ونتائج الاختبارات العلمية التي يحصلون عليها . فالفرد هنا اقل قيمة في هذا التعاون الاجتماعي ، لان العقل الذي يستعمله واللغة التي يستعملها هي من نتاج المجتمع . وهذا يطابق آراء الفيلسوف الالماني هيكل واتباعه الذين يقولون ان روح المجتمع هي التي تسير المجتمع وتكيف افكار الافراد واتجاهاتهم ضمن حدود معينة وفي نطاق تلك الروح ، فلما كان العقل من نتاج المجتمع ، فالمجتمع هو كل شيء والفرد لا شيء . وهذه نظرية يوافق عليها الذين يقدمون المجتمع على الافراد كالماركسيين مثلا ، ولا يوافق عليها الذين يؤمنون بقيمة الفرد وافضليته بالنسبة الى المجتمع . ولكن فكرة التعاون بين الناس في تحكيم العقل للوصول الى حل المعضلات معناها من جهة اخرى تبادل الانتقاد وتناقل الآراء بحرية وبدون تعصب ، بدون ان يكون لاحد من الافراد افضلية على غيره على اساس الادعاء بأن عقله هو ارشد واصوب من عقولهم ، ولذلك فانه بحكم هذا التفوق العقلي يصح له ان يملي عليهم ويجدر بهم ان يطيعوه .كان هذا الادعاء يكون في ايام السحر والوثنية وعبادة الاشخاص ، او على راي افلاطون الذي كان يعتقد بوجود اشخاص امتازوا عن غيرهم بقوة العقل ، وبذلك جعل لهم السلطة على من سواهم ، وجعلهم بحكم هذه الميزة المزعومة اسيادا على غيرهم . ومن هنا اختلف سقراط عن افلاطون ، فبينما كان افلاطون يقول بوجود عقلية فائقة لا يتمتع بها الا الآلهة وعدد محدود من الاشخاص كان سقراط يؤمن بمحدودية العقل البشري وبأن كل انسان محتاج الى المشاركة العقلية مع غيره حتى يكون الوصول الى الحقيقة . وعلى هذا الاساس كانت فكرة الجدل والمحاجة المعروفة . فتحكيم العقل عن طريق التعاون مع عقول الغير يسميه «بوبر» بتحكيم العقل الصادق ، وتحكيم العقل استبدادا بالراي كما هو الحال مع افلاطون يسميه بتحكيم العقل الكاذب .

ويوجد موقف مناف لموقف تحكيم العقل تماما وهو عدم تحكيم العقل ، بل والتنكر له . واساس هذا الموقف العكسي ان الانسان على الغالب غير راشد ولا محكم لعقله، كما هي طبيعته البشرية . فهو وسط بين الانسان الراشد العاقل وبين الحيوان . وهو يفكر ، ولكنه تحت رحمة أهوائه وعواطفه حتى انه اذا فكر كالعالم مثلا فانه لا يفكر الا مدفوعا بشهواته ورغباته . واذا توصل الى راي او حقيقة فهو يصل اليها عن طريق الالهام والبصيرة الداخلية ، اكثر من ان يصل اليها عن طريق التروي وتحكيم العقل . والمثال على ذلك ان الفنانين والشعراء ، وهم اصحاب الابداع ، ليسوا من اصحاب تحكيم العقل لانهم يعتمدون على الحس الباطني والالهام الروحي فقط. والسؤال عن الانسان هل هو عاقل بمعنى الكلمة او نصف عاقل او غير عاقل سؤال اشغل الافكار قرونا طويلة ، ولا يزال يشغلها حتى الان .وقد نجم النزاع بصورة فعلية بين مذهب تحكيم العقل ومذهب عدم تحكيم العقل في القرون الوسطى لاول مرة ، حينما كان كلام الكتب السماوية يقدم على كل شيء ويعد بانه القول الفصل في جميع الامور وافق العقل عليها ام لم يوافق . ومن الطريف ان الذين كانوا يحامون عن الدين والكتب السماوية كانوا يلجأون الى تحكيم العقل واستعمال المنطق ، كما هو جار الان مع برنر Brunner الكاتب الديني الالماني المشهور . ثم تتابعت العصور منذ العصر السادس عشر ، وتتابع معها نمو الحركة الفكرية على اساس تحكيم العقل في جميع الميادين حتى في ميدان الدين .

ويجدر بنا هنا ان نقف قليلا لنلقي نظرة على قيام حركة تحكيم العقل والاسباب التي دعت الى قيامها في أوروبا . ولا يخفى ان حركة تحكيم العقل وكذلك حركة التحرر الفكري كانتا في الاصل موجهتين ضد السلطان الديني ، قبل ان توجها الى شيء آخر ، حتى ان كلمة Rationalist بمعنى صاحب المعقول او الذي يحكم العقل وضعت واستعملت بعد وضعها للدلالة على الشخص المنحرف عن سواء السبيل في الدين . وقد استعملت كلمات اخرى للدلالة على الحركة التحررية الجديدة ، وهي حركة لا يدرى ، اذا كانت هي نتيجة للحركة العلمية الجديدة أم ان الحركتين هما نتيجة تمخض فكري عام . ومن اطرف هذه الكلمات من حيث تاريخ تطورها كلمة Libertine . فقد اطلقت هذه الكلمة في الاصل على جماعة ظهرت في هولندة قرب منتصف القرن السادس عشر كانت اشبه ما تكون بجماعة الفرندز او الكويكرز من حيث اعتقادها بأن دليل الانسان هو نور داخلي في نفسه يهديه الى الطريق المستقيم وليس له حاجة بقوانين خارجية دينية وغير دينية . واضطهد هؤلاء في هولندة فهاجروا منها الى سويسرا ، وهناك وقعوا تحت نقمة كالفن Calvin المصلح الديني المعروف فأطلق عليهم كلمة Libertine بمعنى المتحرر ، واضطهدهم هو وجماعته حتى انتقلوا الى فرنسا ، وهناك انتشرت كلمة Libertine هذه واصبحت علما لاصحاب الفكر الحر ولطبقة من الشعراء الفرنسيين . ولكن لما كان افراد هذه الجماعة المتحررة من السلطان الديني متحررين من القيود الاخلاقية ايضا ،فقد اخذت الكلمة تدريجيا تنحو نحو الاباحية وصارت مرادفة لكلمة (اباحي) .

ولم يكن اصحاب الفكر الحر في بادىء الامر يجرأون على الظهور بمظهر الانشقاق والزندقة والالحاد ، بل كانوا يلجأون الى التستر والمدارة في اقوالهم وكتاباتهم حتى لا يصيبهم ضرر من نقمة السلطات القائمة . ومن اشهر هؤلاء المتسترين الكاتب الفرنسي المشهور مونتين (١٥٣٣ — ١٥٩٢) . فقد كان في كتاباته يبالغ في وصف الشيء الذي يريد ان يهاجمه الى ان يصل في هذه المبالغة الى

الحلم المزهر

حلمت بها آن ... لا أذكر — سوى بسمة من فم يقمر
تدلت عليه مجامر نور — تمنى لها القلب لو تنثر
وبوح من الطيب كالخمر تهفو — اليه شفاه له تعصر !
وقفت أسائل عنها الربيع — ففنى ، زنابقه ، السمر
وورد الضفاف تحلى لعرس — النسيم ، ، فما ابتذل الاحمر
لجنيتي ما تحوك النجوم — الصبايا من السحر او تضفر
لها القمر الحلو يعشق مثلي — غواها ، لها الحلم المزهر
وفي الروض اما سرت كم أفاق — على هزج اعطافها العنبر !
وتلك الدوالي عناقيدها — ترامت على ثغرها تسكر
وفي شعرها أمسيات المغني — وفي خصرها الوتر الاخضر .
فكم بلبل من حنين غناها — يحن ، وكم ادمع المزهر !
فتاة لها البدر يخت ، وقلبي — رباب ، وعين الهوى أبحر
غرقنا معا في عيون الصباح — فتاهت على حلمنا الازهر

موسى المعلوف

درجة الغلو والسخرية ، وبذلك يوحي الى القارىء من طرف خفي كيف ان هذا الشيء لا يستحق ما هو عليه من الاحترام والتقدير . وقد اقتفى اثره فيما بعد الفيلسوف الفرنسي فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) . وكانت بداية التغير والتحول في افكار مونتين انه ترجم كتابا عن علم اللاهوت الطبيعي ونشره في ١٥٦٩ ، واساس هذا الكتاب ان الانسان يستطيع معرفة الله عن طريق العقل ، اي ان الانسان يستطيع من دراسة العالم ومخلوقاته وكيفيات الخلق ان يتوصل الى معرفة الله . وقد عرف هذا المذهب بالديانة الطبيعية ، وابسط كيفياتها القديمة تقديس الحوادث الطبيعية وعبادة النجوم . فكان لهذا الكتاب الذي ترجمه مونتين اكبر الاثر في تفكيره ، فنحا بعد ذلك ناحية الشك والتشكك Scepticism، وهي اول نواحي حركة التحرر الفكري او حركة تحكيم العقل . ومع ان مونتين قد ترجم الكتاب المشار اليه آنفا وصاحب الكتاب يدافع عن الدين ضد الملحدين ، الا ان مونتين ترجمه بتكليف من أبيه ، ورد على الكتاب بكتاب منه تجاراً فيه وتجاسر على معارضة كثير من آراء المؤلف الاصلي ، وهذا في ذات حدته شجاعة كبيرة في ذلك العصر المتعصب للدين . واول شيء مهم عارضه مونتين هو ان العقل البشري لا يمكنه ان يعرف الذات الالهية وان كل نظرية لتفسير الحضرة الالهية ليست من الصحة في شيء ولا هي بنظرية . وحذر من الافراط في الاعتماد على العقل في حل جميع المشكلات ، لان جميع ما ينتجه العقل عرضة للشك وعدم اليقين . والانسان حيوان لا يستطيع ان يدعي التميز عن الحيوانات الاخرى بسبب عقله ، بل ان الحيوانات من بعض النواحي المعينة افضل من الانسان لانها اكثر ولاء وليس يوجد بينها ما يوجد بين البشر من حروب . وقد صب نقمته على الذين يعذبون البشر ويعاملونهم بالقسوة والوحشية والاضطهاد .ومن اقواله في ذلك بأنه لا يستاء من الانسان المتوحش الذي يشوي جثة الميت ويأكلها بقدر استيائه من الذين يعذبون الاحياء من البشر . وكتب معتقداته في هذه الحياة على أخشاب سقف الحجرة التي كان يعتكف فيها للدراسة في عبارات موجزة بليغة كان عددها تقريبا اكثر من خمسين عبارة . ومنها : «لا تكن حكيما بمجرد ظنك الخاص .» — « لا يوجد سبب لا يعارضه سبب مساو له . » — « انا لا اجزم بشيء ، ولا أفهم الاشياء ، وانما اعلق الحكم وأتفحص » — « الناس معذبون بآرائهم عن الاشياء ، لا بالاشياء أنفسها .»

لندن — حسن الكرمي

العقل والايمان والارادة

بقلم ندره اليازجي

* * *

كيف ابرر معتقداتي ؟ وما هو هذا الشيء الذي يتحرك في داخلي فيتمخض عن ايمان ؟ وهل يمثل ايماني الاعتقاد ؟ والى اي حد تلعب ارادتي دور الايمان ؟ وما هو موقف العقل من كل ما اتمثله بذهني وشعوري ؟ والى اية درجة يتفق عقلي وايماني ؟

نحن الان امام الفكر نناقشه ونتحدث اليه . ومن خلال هذه المناقشة يبدو لنا بمظاهر طبيعية ، يعبر كل مظهر منها ، عن موقف معين . فكل مظهر من مظاهر الفكر يعبر عن موقف تجاه موضوع .ماذا نسمي وسيلة التعبير عن هذا الموقف ؟

يخضع كل موضوع خارجي وكل مسألة داخلية لانعكاسات الفكر . وتعبر انعكاسات الفكر هذه عن العلاقة التي تقوم بين الفكر كذات عاقلة وبين الموضوع كمظهر يعقل .وتعتبر كل نتيجة يصل اليها الفكر صورة او فكرة . وتتجلى هذه الصورة او الفكرة في تذهننا للموضوع بشكل مباشر او غير مباشر او في شعورنا به عن طريق الادراك والوجدان والوعي.وتتخذ أفكارنا مضمون الماهية لانها اصبحت شعورا او صورة او تذهنا .

ما هو دور العقل لدى تشكيل المعتقدات ؟ العقل صورة حية للدماغ ، فهو تفكيره اي هو نتيجة التفاعل الدماغي في كل الاتجاهات . فالعقل اذن ماهية . ويوجد هذا العقل في دائرة التفكير بشكل عام . والانسان يفكر ثم يعقل ، ويشعر ثم يعقل ، ويحس ثم يعقل ، ويتفاعل مع الوجود ثم يعقل ، ويتألم ثم يعقل ، ويفرح ثم يعقل ، ويغضب ثم يعقل. ويكون العقل ماهية لانه مثال الفكر . ويعبر عن كل ما يتفاعل فيه وجودي من حس وادراك وتمثل وتخيل وشعور ووعي ولاوعي .وهو في هذا يعبر عن المثال وعن الصورة التي تنطبع فينا .

العقل اذن هو انا ، ولا شيء يوجد الا في . ولا استطيع ان احدد عقلي لانني لا استطيع ان احدد او ان اعرف خيالي وشعوري واحساسي وادراكي ووعيي ولاوعيي كما اني لا استطيع ان احدد واعرف نفسي . فالعقل اذن هو الطاقة التي تعمل في وتعبر عني ، وينتج انه المثال او الماهية او الصورة. ولا استطيع ان اميز دماغي عن جملتي العصبية لانني كل متحد ، كما انني لا استطيع ان اقسم نفسي الى اجزاء متنافرة تعمل كل واحدة في معزل عن الاخرى . فالعقل هو طاقتي الانسانية التي تتفاعل في ذاتها وكينونتها وموضوع حياتها ، اي المادة ، طاقتي التي تشكل التفكير وبشكلها التفكير لانها داخلية وخارجية ، طاقتي التي تعبر عن كياني بوحدة تامة ومتكاملة ، تعبر عن الانا ، عن فكرة وجودي ، عن المثال المتحد في ولا ينفصم ، عن الماهية التي تسبق الوجود لانني اتذهن الموجود ، هذا الموجود الذي يوجد في المثال، والذي من خلاله اتذهن نفسي .

وارادتي هي الفعل . هذا الفعل الذي يتخذالموقف. وبدون هذه الارادة لا يستطيع الانسان ان يأخذ موقفا في الوجود . فالارادة تعقل ، وهي جهل ايضا . وكلما كان تفاعل كياني في ذاته واضحا وعظيما كان تعقلي اكثر وضوحا اي كانت ارادتي واضحة ومدركة . وكلما كان تفاعل كياني غامضا ولاواعيا عبرت ارادتي عن المحسوس القاتم وعن الجهل . فالارادة هي نتاج التعقل . والتعقل هو عمق وجودي .

وارادتي هي الحرية .هذه الحرية التي تنطلق في اجواء المعرفة لكي تصل الى ماهيتها .فهي تنظر في المحدود لكي تصل الى اللا محدود ، وتنظر الى الموضوع لكي تصل الى حقيقته اي الى ما يقع وراءه ، وتنظر الى الحس لكي تصل الى الشعور والادراك ، وتنظر الى الجهل لكي تصل الى المعرفة ، وتنظر الى الشر لكي تصل الى الخير ، وتنظر الى الشيء لكي تصل الى ذاته . ان ارادتي هي تعقلي بشكل حرية .

الارادة التي تعبر عن الحرية والفعل هي التعقل الذي لا يخرج عن **دائرة الاختيار والانتقاد . ولا يوجد** انتقاء بدون محاكمة . فالارادة محاكمة . ولا تكتمل المحاكمة بدون تعمق في الماهية . وتكون المحاكمة عقلية **ووجدانية . وهكذا تعرف الحقيقة بأنها المحاكمة** الوجدانية . وهذه المحاكمة هي تعقل الموضوع ، خارجيا كان ام داخليا ، وهي انتقاؤه بفعل ماهية الحرية والارادة، وصياغته بقالب وجداني . فالمحاكمة العقلية تختار الموضوع ، والمحاكمة الوجدانية تنفيه او تثبته .

والايمان هو هذه المحاكمة الوجدانية التي تنفي او تثبت . فهو الارادة في شكلها المثالي اي الوجداني الذي هو ميزان الكيان الانساني للادلاء بالحقيقة ، انه ميزان الروح التي لا توافق الا اذا طابق الموضوع على الماهية . فاذا خرج الموضوع من محكمة العقل دخل محكمة الوجدان . ولا يسمح الوجدان لاية عملية فكرية ان تتبنى موقفا ما لم يلق عليه اضواءه . فالايمان هو الموقف الوجداني الذي يتخذه العقل . وينتج عن هذا ان كل معتقد هو ايمان طالما انه يخضع للمحاكمة التي هي عقلية

اي ارادة ، ووجدانية اي اقتناع ، وايمان اي موقف .

انني أؤمن بحريتي مع انني لا افهم حريتي جيدا ، وأؤمن بالغد مع انني لا اراه ، وأؤمن بالنجاح مع ان وسائل النجاح لم تتوفر لي بعد ، وأؤمن بالمستقبل الزاهر مع انني لم احققه بعد ، وأؤمن بمحبة صديقي مع انني لا اعرف كيف سيكون غدا ، وأؤمن بالدواء مع انني لا اعرف محتوياته ، وأؤمن بما تقوله لي مع انه لم يقع بعد ، وأؤمن بالنظريات العلمية مع انني لم ارها ، وأؤمن بالخلية والذرة مع انني لم اشاهدهما ، وأؤمن بتقدم العقل الانساني مع انني لن احيا طويلا ، وأؤمن بقدرتي وصيرورتي مع انني لم «اصر» بعد ولا تزال قدرتي كامنة في ، وأؤمن انني افكر مع انني لا اعرف ماهية الفكر ، وأؤمن اني احس مع انني لا اعرف واقع الحس ، وأؤمن اني اشعر مع انني اجهل حقيقة الشعور ، وأؤمن انني انام واستيقظ مع انني لا اعرف كيف يتم كل هذا ، وأؤمن ان الهواء والطعام يتحولان الى طاقة في مع انني لم اشاهد عملية التمثيل هذه .

يبدو لي ان الانسان يؤمن على الرغم من انه لا يستطيع ان يبرر هذا الايمان . وهل يعني هذا ان الايمان ، اي المعتقد ، باطل ؟ اذا بطل ايماني فسيبطل تفكيري معه لانه لا يمكن ان يؤمن الانسان اذا لم يرد ، ولا يريد ما لم يحاكم ، ولا يحاكم ما لم يعقل ، ولا يعقل ما لم يفكر ، ولا يفكر ما لم يتصور ، ولا يتصور ما لم يتمثل ، ولا يتمثل ما لم يشعر بالمثال . فالايمان هو الشعور بالمثال او بالحقيقة ، مادية كانت ام معنوية : الحقيقة الناتجة عن التعقل كمجرد عملية دماغية او الناتجة عن الوجدان كعملية مطلقة ، مباشرة او غير مباشرة .

واني وجدت ، بعد دراستي وتفهمي لكياني ، ان الايمان لا يخرج عن دائرة التعقل كما ان العقل لا يعمل بدون ايمان . ان حياتي كلها ايمان . ايمان بما يرى وبما لا يرى . فهو اذن عقلي في حالته التي لا تستقر ، في انطلاقه الى عالم المثل . فالايمان اذن هو المثال الذي يطبق على الموضوع ، عقليا كان ام وجدانيا .

وعلمت ان العقل لا يدحض الايمان وذلك لانني لم اعرف الاسس التي يعتمد عليها العقل وهو في طريقه الى الاعتقاد . وعندما ادرس الخلية او الحركة في الشيء او الفراغ الخ . ما هي القدرة التي تعتقد في وتؤمن ؟ هل هو حسي الذي ينقل الصورة ، ام هو دماغي الذي يصورها ويحتفظ بها او يعيدها الى الحس ، ام هو شعوري بقيمة ما ادرس ، ام هي رغبتي الشديدة واندفاعي القوي لتفهم الموضوع ومعرفته . ما هي هذه القدرة ؟ هي قدرة الانسان هي الانا التي تعقل !

وعلمت ايضا ان النتائج التي تتوصل اليها الانا المدركة قائمة فيها . فكيف يمكن ان تدرك الانا حركة المادة لو لم تكن الحركة فيها ؟ وكيف يمكن ان تدرك الخلية ان لم تكن موجودة فيها ؟ وكيف يمكن لو تدرك الابعاد لو لم تكن الابعاد فيها ؟ وكيف يمكن ان تتحدث عن الفراغ لو لم يكن الفراغ فيها ؟ وكيف يمكن ان ننعت الفكرة او الايمان او الاعتقاد او التعقل او الارادة بقوة او طاقة لو لم تكن كلها فيها ؟ وكيف يمكن ان نتكلم عن الحس والشعور بالاشياء الخارجية والتفاعل معها لو لم تكن الانا تحتويها ؟ فكل حركة ، وكل خلية ، وكل فراغ ، وكل بعد ، وكل احساس ، وكل شعور ولا شعور ، يتمثل في انا . وعندما أؤمن ، يكون ايماني شاهدا على طاقتي ، على وجود الانا في المطلق .

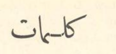
ومن خلال تأملاتي ، ادركت ان العقل لا ينفي الايمان ــ ان العقل ايمان والايمان عقل . وعلمت ان عالم التجربة ناقص وغير مكتمل . فاذا كنت لا أؤمن الا بما تريني اياه التجربة ، فبماذا أؤمن ؟ هل أؤمن بالتجربة المادية ام أؤمن بعقلي ؟ وكيف أؤمن بها طالما انها لم تصل الى درجة الكمال ؟ واذا أقمت ايماني على صمتها ، فلا بد وان اتنكر للحقيقة كلها . انني ، كانسان ، لم اكمل دراستي للموضوع ، موضوع التجربة التي لا تنتهي . فاما ان اكون قد توصلت الى قمة تفكيري وتجربتي ويحق لي عندئذ ان اعتقد او أؤمن بحقيقة وصواب التجربة ، واما ان اعتقد وأؤمن بأن الموضوع ذاته ، موضوع التجربة ــ ولا شك ان الانسان هو اكبر موضوع تجربة ــ سيتمخض في المستقبل عن مجالات جديدة وواسعة للمعرفة ، فكيف اذن اعتقد وأؤمن بتجربة ناقصة ؟

اني شعرت وعلمت ان كل تجربة قام بها انسان عظيم او كل فكرة قال بها مفكر جيد ، خضعت للتبدل وللصيرورة . فاذا كان موضوع التجربة في صيرورة دائمة ، فكيف يمكنني ان أؤمن او اعتقد بتجربة فترة قصيرة جدا لا تعبر الا عن جزء بسيط من الصيرورة ؟ واذا كان موضوع التجربة لا يكتمل الا باكتمال صيرورته ، فكيف أؤمن او اتأكد من تجربة قمت بها ؟

انني « كانسان » أؤمن بالصيرورة لا بالتجربة الآنية ، وأؤمن بالاستمرار وأؤمن بالحركة لا باخضاعها ، في حالة من حالاتها ، الى التجربة وصياغة قانون . ان الايمان الذي يعبر عن مثال الفكرة من خلال تطورها وانتقالها لا يتعرض للانهيار لانه شعور بالكل لا احساس بالجزء ، اعتقاد في الماهية لا اختبار للموضوع في حالة معينة تخضع للتبدل والتحول .

ان الايمان هو عمل العقل في كل الاتجاهات والمجالات وليس هو الاعتقاد الآني بتجربة ذاتية او موضوعية . وهو الانجذاب الوجداني الى اعماق الموضوع خلال صيرورته الطويلة . وبما ان وجودنا المادي لا يرافق الصيرورة بكاملها لذلك أؤمن بحقيقة مطلقة اريد ان اعقلها وادركها .

دمشق — **ندره اليازجي**



كلمات

بقلم سعد صائب

★ سألني : ما رأيك في ادب «اللامعقول» الذي بدأ بعض ادباء الغرب المعاصريـــن بانتهاجه ، ومضى بعض ادبائنا في تقليدهم؟

أجبت : انه بدعة من بدع عصرنا ابتدعوها كي يضحكونا من افكارهم ، واسلوب كتابتهم.

قال وقد تملكه العجب : ماذا ؟.

قلت : أولم تقرأ قول «برغسون» «.. ان الذي يضحكنا هو اللامعقول ؟ » .

قال : ولكن «لا معقوله» لا يتم « الا اذا تحقق في صورة عيانية ، اي هي لا معقولية مرئية ، او ظاهر لا معقولية تقبل اولا ثم تصحح حالا ».. ورأيي ان ثمة فارقا بينهما ..

قلت : الفارق ان «لامعقولهم» يرفض اولا لعسر تصحيحه ، وان «لا معقوله» يقبل اولا ثم يصحح حالا.. وما عتم ان التفت الـى صاحبه الذي يقف الى جواره فاسر اليـه بكلام فيه تأنيب وتحذير : «اياك ان تنقل افكار الاخرين واعمالهم دون تدبر . ذلك ان الشيء الذي يلائم بعض الناس ، او ينسجم مع بعض الظروف ، ليس من الضروري ان يلائم الظروف الاخرى ويناسبها »..

واذ ادرك صاحبه المغزى ، لم يفض بكلمة.

اما انا فقد رحت اردد بيني وبين نفسي : « مما يرى في هذه الازمنة التي نعيش فيها على عجل ، عدم بقاء المدارس الادبية غير سنين قليلة .. غير اشهر قليلة احيانا »..

★ تقول : «حين يمكن لكل كلمة ان تكلف حياة ، ينبغي ان نقتصد في الكلمات » .

واقول : اين اذن ضميرك واحساســك بالمسؤولية ؟. اولا تشعر بتأنيبهمـا علـى انهزامك ان انت اقتصدت في كلماتك خوفا على حياتـك ؟

ليتك قلت : حين يمكن لكل كلمة ان تكلف حياة ينبغي لنا ان نفيض في الكلمات ... بذلك تبرهن على انك اديب حقا ، وان ادبك حياتك التي تحيا بموتك ..

★ كلما ابصرت فنا «تجريديا» في لوحات بعض فنانينا ، ادركت الفارق بين الايـدي الطبيعية التي تحرك الريشـة ، والايـدي الصناعية التي تتحرك بها ..

عندي ان هذا الفارق متأت من التباين بين حضارة نبدعها وحضارة نقلدها .

أليس «لكل حضارة نظامها الداخلي» ؟..

★ شد ما اسائل نفسي حين اعثر علـى اشارات وتشابيه ميثولوجية عنـد بعـض شعرائنا ... اتراهم يلبون حاجة يدفعنا اليها جوها البطولي كما صنع القدماء ، ومن أتى بعدهم ممـن بـدأوا يتعلمـون الاداب الكلاسيكية ويتذوقونها ؟ ام تراهم يسعـون الى تقليد الشعراء الغربيين فحسب ؟

★ سمعته يهتف قائـلا : ايها الاخـوة « الادباء » !..

ما بالكم تتهافتون على تقليد ادباء الغرب دون وعي او تدبر؟ اولا تدرون انكم بتهافتكم على تقليدهم انما تصهرون ادبكم في بوتقـة ادبهم ، ليبدو ادبا غربيا ممسوخا لا طابع له . لا ادبا عربيا اصيلا له طابعه المميز الذي يدل على شخصية مميزة تتفاعل مع آداب الامم ولا تنفعل بها ..

ان ما ابتغي من ادبكم ان يحقق وجوده.. اعني ان يكون وجوده شهادة له لا شهادة عليه.

ترى .. ما موقفكم من ادباء الغرب الذين تقلدونهم اما ترجم ادبكم الى لغتهم فراحـوا يرددون ساخرين : تلك بضاعتنا ردت الينا..

●

اولا يكـون ذلك مدعاة للسخرية منكم ومن ادبكـم كذلـك ؟. اما انا فقد رحت اردد بيني وبين نفسي قوله :

لقد اسمعت اذ ناديت حيا
ولكـن لا حيـاة لمـن تنادي

★ ضل من يزعم ان الفن يقلد الطبيعة.. الفنان الحق من يوهمنا بأن ثمة طبيعة .. اعني استخدامه رؤياه الداخلية التي لولاها لما كـان الفـن ..

★ سألته : ما السبب في خلو مكتباتنا من الكتب التي تبحث في المسائل الاخلاقية؟

اجاب : ندرة من يؤلفون هذه الكتـب ، وعسر تأليفها عليهم .

قلت : وما مبعث هذا العسر ؟

قال : «ان مسائل الاخلاق تقتضي ممـن يكتب فيها علما وعملا في ذات الوقت ، كما تقتضي ان يحمل علمه فضيلة ، وان يكون تأليفه صورة حية لحقيقة في نفسه لاعمـال تطابق تلك الحقيقة وتستلهمها ايضا »..

قلت : لهذا عجت مكتباتنا بالكتب التـي تثير الغرائز ، وخلت من الكتب التي تسمو بهـــا ..

★ قل لي ما المجتمع ؟

أقل لك ما ادبه ..

★ ها كم عبرة من التاريخ : حين غلبت «العامية» الفصحى عند «الفرس» قبل الفتح العربي تغلبت العربية على الفارسية بعد الفتـح ..

تموت الامة بموت لغتها ...

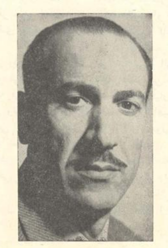
★ قال : رأيت «الشيوخ» في الغـرب يسعون فرحين الى تلقين «الشباب» التجارب التي اكتسبوها من حياتهم الطويلة ليفيدوا منها ... ورأيت «الشيوخ» في بلادنا يخفون تجاربهم عن شبابنا ضامرين له العـداء ، ساعين الى تحطيمه ..

قلت : ليست العلة في «شيوخنا» بـل العلة في «شبابنا» الذين توهموا ان تجاربهم ولدت معهم ، فتمردوا على الشيوخ معرضين عن تجاربهـم ..

قال : أتعني ان شبابنا في موقفهم هـذا الذي يقفونه حيال شيوخنا قد عجزوا عـن نقل تمردهم كحس فردي الى الصعيد العام ؟

قلت : اياه اعني... حسبهم انهم اضاعوا خبرة الشيوخ وما افادوا من خبرتهم لانهـم فقدوا ايمانهم بالشيوخ « فداخوا في قلـق المسؤولية ، وقلق العصرية ، وقلق البحث

سعد صائب



● من كتاب «ذوب الروح» المعد للطبع وقد قدم له الاستاذ شفيق جبري .

كذبت

***

تحبها ؟.. كذبت يا كاذب — الحب عنك عالم غارب
هل ترك الحقد فراغا لها — يقر فيه قلبها التائب ؟
وهل هواها سلعة تشترى — وقلبها عنك ، وبي ، راغب ؟
دعك من اللهو ، ومن قصة — يجترهاو جدانك الساغب
ما كانت الحسناء العوبة — يلهو بها الموتور واللاعب
لكنها وحي يشع الهدى — يقبسه القديس والراهب
وكل غاو ، كافر بالهوى — يروح فيه .. الامل الكاذب
والحاقد الناشب أظفاره — سيزدريه المخلب الناشب
دعك من اللهو ، اما ترعوي ؟ — في كل يوم ذاهب آيب ؟
تجتر أحلاما ذوى عطرها — ما عاد فيها برعم راطب
تسير في اثري ، وفي اضلعي — قلب كبير ، لين ، حادب
ما فيه من حقد الهوى لعنة — ولا سعير كافر لاهب ..
وسدته الحب ، وأسقيته — ما يشتهيه الكاس والشارب
جعلته عشا .. لاحلامها .. — يفار منه البلبل النادب
ياوي اليه الطهر في رهبة — ويبتغيه المخطىء التائب !

طولكرم ــ الاردن — راضي صدوق

عن القيم » ..

★ سألته : في اي عصر نحن العرب ؟
اجاب : في عصر العلم .
قلت : معناه اننا اجتزنا عصرين .. «عصر الايمان الذي يفضي الى عصر العقل ، وعصر العقل الذي يفضي الى عصر العلم ».
قال : هذا اذا اخذنا بالقوانين التجريبية للمجتمع .
قلت : واذا اخذنا «بالقوانين الواقعية» لمجتمعنا ؟
قال : نكون في عصرهم لا في عصرنا ..
قلت : تلك هي مأساتنا ...

★ رباه !! هب لقومي عقلا تسم به حقيقتهم . وجنب عنهم حقيقة ياباها عقلهم..

★ لا تعجبوا ممن ياخذون بمذهب « الفن للفن » . فلكم من ابن عاق حنا ابو عليه ، وحين كبر قتل اباه .. اتدرون ما مبعث جنايته ؟
انها استعلاؤه عليه .. اليس «الفن للفن» استعلاء على الحياة ؟؟

★ قلت : الموهوبون يبدعون الفرص . والمقلدون يتحينونها . وقد يشك اولئك في مواهبهم فتفوتهم الفرص . ويؤمن هؤلاء « بمواهبهم » فيهتبلونها ..
قال : ولكن المعروف عن «ديكارت» « ان الشك تفكير ، والتفكير وجود ، والانسان اذ يشك يكون مفكرا ، وهو اذ يفكر يكون موجودا » .
قلت : صحيح من وجهة نظر « ديكارت » واشياعه .. بيد ان التفكير لا يعني البتة استجلاء الطبيعة الانسانية .فقد يكون الانسان مفكرا مع جهله هذه الطبيعة .

قال : لكأني بك من أتباع المذهب الحسي!
قلت : جرب تر ..
قال : كفى بالتجربة واعظا !!..

★ لا تلوموني على « بداوتي » فما طربت اذني قط لرنين كرنين دقات « الهاون » لانها لا تسمعني موسيقا «الهاون» نفسه فحسب . بل موسيقا «اليد» التي تدقه ...

★ قلت لصاحبي : اوصيكم اما مت بان تبنوا لي حجرة في المقبرة تضم رفاتي ومكتبتي.
قال : وقد تولاه الدهش : لم ؟
قلت : لاني احب ان يقرأ الموتى ما كتبت، ويشاركوني فيما قرأت .
قال : لكأني بك تسخر من الموتى ؟
قلت : لا .. بل اسخر من الاحياء !! ..

دمشق — سعد صائب

في احدى الليالي الحالكة امتد لسان ضخم من اللهب وشق طريقه صعدا في الخوذة السماوية السوداء . لقد اندمج الدخان في سواد الليل . اما اللهب الاحمر فقد فضح الامر بلسانه الطويل الملتوي.

وكان الناس يتجمعون هنا وهناك متسائلين عن مصدر ذلك اللهب . وكان الاطفال والنساء يطلون من سطوح المنازل متفرجين على منظر النار وهي تزداد ضخامة وارتفاعا .

ـ هذا مستودع البترول الذي تملكه شركة العمري . هو الذي تندلع منه النيران . ـ لا ، انه منزل داود بك . انظروا الى شرفة كيف تنهار . ـ كلا ، كلا . ليس الذي يحترق مستودعا ولا منزلا ، وانما هو حانوت في السوق . نعم حانوت في منتصف السوق . الا ترون مكانه ؟ هناك حيث يقع السوق .

هذا ما كان يقوله المتفرجون عن بعد .

ـ آه ! يالله ! هذا حانوت جواد الايوبي . لا حول ولا قوة الا بالله ! مسكين جواد !

هذا ما فاه به احد المتفرجين عن قرب .

ـ ماء ! ماء ! تراب ! تراب يا اخوان ! احضروا ماء والا التهمت النيران جميع الحوانيت .

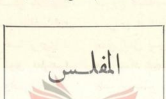
شاهد جواد النار وهي تأتي على كل ما يملك في هذه الحياة فكاد يجن غيظا وتضايقا ، ولم يدر ماذا يصنع. لقد هم باحضار شيء من الماء من مكان قريب وهو يصرخ : «اطفئوا النار يا شباب ! اطفئوها يا اخوان!» ولكنه ما لبث ان عاد الى حانوته وهو في حالة الى الجنون اقرب منها الى الوعي وقال باكيا :

ـ مالي ! بقي طول حياتي يذهب سدى . اعينوني يا ناس . ان الموت افضل من الحياة .

وهم باقتحام النار لينقذ ما يستطيع انقاذه من محتويات الحانوت الهامة .غير ان بعض اصحابه امسكوا بيديه ، وحالوا بينه وبين ذلك . فابتعد عن حانوته ، ثم جلس على حجر ، واسلم رأسه الى راحتيه ، وراح يتامل ويفكر وينتحب .واخيرا وضع كفه على عينيه ليحجبهما عن منظر النار ، وزوى وجهه عنه ، ثم لطم خديه ، وعض اصبعه يأسا . وبعد ذلك رفع يديه الى السماء قائلا :

ـ ارحمني يا الهي ! ان هذا كثير علي . لقد خربت دياري . لم يبق لي شيء في الحياة .

ولكن النار لم تصغ الى شكواه .



المفلس

بقلم عبدالحميد الانشاصي

انها ما تزال جادة في عملها : تتلف وتحطم وتحرق . لقد حولت المواد الغذائية والحاجات الضرورية الى رماد وحطام . وكان جواد شبيها بشيء من بقايا محتويات حانوته . لقد جلس على الحجر ذابلا منطويا على نفسه كأن قوة خفية جردته من الحركة والحياة والامل والنفع فغدا شيئا تافها لا قيمة له .

تعاون الناس على اطفاء النار وانقاذ بعض محتويات الحانوت ، ولكن النار لم تهدأ الا بعد ان قامت بوظيفتها وافترست كل ما فيه منفعة للبشر والتهمت حتى ما ليس فيه منفعة تذكر : المواد الغذائية الجامدة منها والسائلة والزجاج والرفوف الخشبية .وقد شوهت منظر الحانوت اذ البسته بدخانها ثوب الحداد ، ففتح فاه الاهتم متثائبا في بله على مرأى من المتأسفين المتنهدين ومن الشامتين المتهكمين .

كل ذلك كان نتيجة لاهمال فظيع ارتكبه احد اصدقاء جواد حينما جلس بجانبه في الحانوت في اوائل تلك الليلة المشؤومة ، وراح يدخن سيجارة قدمها اليه جواد ، حتى اذا بقي منها عقبها القاها في اهمال بجانبه من حيث لا يدري صاحب الحانوت . ومن عين عقب السيجارة الصغيرة الملتهبة اندلعت تلك النيران الثائرة الساخطة ، فاتلفت ما قيمته سبعة الاف دينار .

عاد جواد الى منزله كما يعود المفجوع من جنازة . وقد رافقه اصحابه ليواسوه في مصابه . قال له احدهم :

ـ لا تحزن ولا تكتئب يا اخي . كل ما حدث فداك .

وقال آخر :

ـ ان الخسارة الحقيقية هي خسارة الحياة . اما الاشياء المادية فهي تافهة ، وفي امكانك ان تعوضها مع الوقت .

وقال ثالث :

ـ لا تفكر فيما جرى لك يا ابا حاتم . ان حوادث الدنيا كثيرة ، ولو ان كل امرىء فكر في جميع ما جرى له لمات غما .

ولكن كلمات المواساة هذه لم تستطع ان تطفي على حراب اللهيب التي تنخس عقله الذاهل وقلبه المتألم . لقد كان يفكر في ذلك الوقت في مستقبله ومستقبل اسرته : زوجته وابنه وابنته .كيف يلقاهم الان؟ ماذا يقول لهم؟ «افلست! خربت دياري !»؟ لقد تعودوا ان يكونوا عالة عليه . فكيف يعولهم الان بعد الذي جرى له ؟ ان ابنه لم يستكمل حظه من الدراسة الجامعية بعد . بقي عليه ثلاث سنوات ليصبح



طبيبا . وابنته الحسناء خطبها احد الاثرياء البارزين في المدينة . فماذا يتم من امره معها حينما ينتهي اليه ذلك الخبر المؤلم ؟ لقد كان غنيا فافتقر . مني بخسارة **لا تعوض** . ليس لديه دور واراض تعوض عليه ما خسر . ان انقاذه مما وقع فيه من ورطة لا يتم الا بمعجزة .

حينما دخل جواد منزله استقبلته زوجته بوجه مرح كعادتها . انها لا تعلم ما جرى له . امسكت بيده وقالت له :

ــ تعال لأفرجك على الهدية التي قدمها حسام الى ابنتنا سلوى . انها هدية فاخرة من غير شك .

ولم تكد سلوى تسمع صوت امها وهي تحادث اباها حتى اقبلت على والديها مسرعة . ولما دنت من ابيها اهتزت طربا ، واشرق وجهها بابتسامة عذبة ، ثم رفعت يدها وادنتها من عينيه قائلة :

ــ ابي ! انظر الى ما اهداه خطيبي حسام الي . انه اجمل خاتم رأيته في حياتي . خاتم ماسي ثمين .

ولكن والدها لم يلق نظرة واحدة على الخاتم . لقد بدت عنقه متصلبة ، وبدت عيناه جامدتين . مشى بخطى بطيئة رخوة مصوبا امامه نظرات شاردة سارحة . وقد لاحظت زوجته ذلك عليه فقالت له :

ــ ماذا جرى لك ؟ أمريض انت يا عزيزي ؟

فهز رأسه في تألم ولم يجب . وبعد لأي قال بصوت **مختنق** :

ــ ليتني مريض ! ان المرض اهون من الافلاس .

ــ افلاس !

لم يكد حاتم يسمع كلمتي «مرض» و «افلاس» حتى اقبل على والديه مهرولا ، وقال مجيلا نظره في وجهيهما :

ــ ما المسألة ؟

ولكنه لم يسمع جوابا ، ولم يجد بدا من ان ينضم الى امه واخته في السير وراء والده في صمت وهدوء .

وفي غرفة الاستقبال نطق جواد ببضع كلمات ، فتحول مرح افراد الاسرة الى ترح .

* * *

وفي صباح اليوم التالي قدم عزت على اخيه جواد ليواسيه في مصابه . قال له :

ــ كن صبورا يا اخي . احتمل ما حل بك بقلب قوي ونفس لا تعرف اليأس .

فتنهد جواد ثم قال :

ــ ولكنني افلست يا اخي ، ولم يبق لي امل ان اعيش عيشة هانئة . ان الاصدقاء والمعارف ينفضون عن المفلس ويبتعدون عنه ، ولا يمدون اليه يد المساعدة ان هو طلب منهم ان يقرضوه شيئا من اموالهم .

فقال عزت متخطيا عيني اخيه بنظراته :

ــ ان الله يرزق الناس جميعا ، انه لا يتخلى عن انسان .

ان عزت احد اثرياء المدينة الكبار . لقد كسب ثروته من نمرة «يانصيب» لسباق «دربي» . لم يرهق نفسه في جمع المال ، ولم يتألم ويتعذب في كسب الرزق . لم يذق طعم الفقر والعوز قبل ان يغنى . **فهو لذلك** لا يستطيع ان يتصور الحال التي انحدر اليها جواد . ان العطف لا يمكنه ان يخترق هذا السور الغليظ الذي يحجب قلبه الجاف عن اخيه . لقد لبس وجهه قناع الحزن من اجل اخيه ، ولكنه لم يؤوه تحت جناح رحمته . وكل ما جاد به عليه بضع كلمات ينطق بها اي شخص غريب وهو يواسي **جوادا** .

* * *

وفي ذات يوم دخل منزل جواد شاب تلوح على محياه سمات النبل والانسانية وقال لجواد :

ــ اين انت يا عزيزي؟ لقد تفقدتك كثيرا فلم اجدك . **ما هو الاحتجاب؟** ان مكثك في المنزل لا يؤدي الى خير . اخرج الى العالم . خالط الناس . ان الاشخاص الذين افتقروا بعد غنى كثيرون ، **وان الاشخاص** الذين اثروا بعد فقر كثيرون ايضا . فما هذا اليأس ؟

ولكن هذه الكلمات **لم تحي الموات** من قلب جواد . ان الكلمات الثقيلة المكررة التي تنطلق من فوهة نفسه المعذبة نحو اذن ضميره في كل حين طغت على تلك الكلمات المواسية المشجعة التي فاه بها صديقه .

قال له جواد :

ــ كيف لا ايأس يا سليم واخي يبخل علي ببعض ماله ؟ **يبخل علي** بقرض ينعشني . هل بقي لي امل في هذه الحياة **بعد الان؟**

حينما سمع سليم ذلك الكلام اغتم وتألم ثم قال له :

ــ **اترك هذا الامر لي** . انني اعرف كيف الين قلبه .

* * *

قال سليم لعزت :

ــ ما رايك في ؟

ــ انك اعز الاصدقاء علي .

ــ **وهل ترد لي طلبا في امكانك ان تلبيه ؟**

ــ كلا . اطلب ما تشاء .

ــ انني لا اطلب **شيئا لنفسي** ، وانما اطلب شيئا لاخيك جواد .

ــ اخي جواد ؟

ــ نعم ، اخوك الذي القى به الافلاس في هوة الفقر وهو مضطر الى النهوض باسرة كل من افرادها في اشد الحاجة اليه .

فألقى عزت على صديقه نظرة استغراب وقال :

ــ ماذا تريدني ان اصنع من اجل اخي ؟ هل انا الذي جررت عليه الافلاس ؟

ــ عزت ! اني ارجوك باسم الانسانية ان تعطف على اخيك وتنقذه من الازمة التي وقع فيها . ارجوك باسم الانسانية لا باسم صداقتنا ان تقرض اخاك مبلغا من المال يستطيع

عيناك فيضان

عيناك فيضان من نور ومن عسل   فلتفرقيني الى ان ينتهي اجلي
في كل مفترق من اضلعي مزق   وما خلا كل درب من دمي الهمل
فكيف ابخل ؟ يا ليت العذاب اذا   لا بد منه عذاب الاعين النجل
أقسمت بالعاطفات الملهبات دمي   والتاركات فؤادي شبه مشتعل
وبالهوى والندامى حين نقرعها   كأسا كأن طلاها راعف القبل
احلى من الشمس ليل راح يكشفه   نوران من كؤوس ملأى ومن مقل
خذي بقية عمر ما أسفت سوى   على ليال به مرت بلا غزل
يا ليتني منك عقد لا يفارقه   عنق اغوص به في عاطر خضل
تهزه منك أعطاف وهدهدة   ويستريح ببدر نصف مكتمل
لولا هوى الفاتنات السمر ما عشقت   «روما» البحار ولم تحصل على وشل
وقد شربت مع العشاق نخبهم   وقد أفاقوا ولا أصحو من الخطل
كأنما اعرقي التفت على عرق   لكرمة استقي من فيضها الهطل

الكويت   **محمد الفايز**

به ان ينهض من مسقطه ويعود الى ما كان عليه من العز والغنى . ليت لدي مالا فأقدم الى اخيك حاجته منه!

فابتسم عزت ابتسامة مرة متهكمة وقال :

ـ اخشى ان يضيع مالي باهماله كما اضاع ماله . لم يكترث لماله ، فكيف يكترث لمالي ؟

فكتم سليم غيظا في صدره ، غير انه لم يلبث ان قال بنغمة فضحته حدتها :

ـ ولكن المصادفة والقدر هما اللذان انزلا به هذه الكارثة العظيمة.

فأجابه عزت بنغمة منتهرة :

ـ هل تريدني ان احارب القدر واصارع المصادفة ؟

القى سليم على عزت نظرة شزراء وقال في نفسه :

ـ هل هذا هو الرجل الذي كنت اظن انه اشد اصدقائي اخلاصا لي ؟ هل هذا هو الصديق الذي كنت اتوهم انه يمتاز على غيره بالذوق والانسانية ؟

لقد بدأ يبغض عزت منذ تلك اللحظة . بدا هذا رجلا غريبا في نظره ، بل خيل اليه انه هو الذي احرق حانوت اخيه . لم يصدق ان صديقا لجواد القى عقب سيجارة بين محتويات الحانوت في اهمال فنشأ عن ذلك حريق .

واخيرا قال لعزت :

ـ ان اخاك الذي كون من اللحم الذي كونت انت منه يسألك العطف والرحمة . ان اسرته تمد اليك ايدي الاستنجاد والاستغاثة . الاب يصيح: «اخي ! اخي!» ، والابن يقول : « عمي ! عمي! » ، والبنت تنادي : « ادركني يا عمي ! » ، والام تنظر اليك متنهدة باكية . انك الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يزيل الحزن والغم عن هذه الاسرة ويدخل على قلوب افرادها الفرح والغبطة . اجبني ! تكلم !

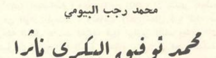
ولكن عزت لم يجبه بل ادار ظهره غير مكترث لما قاله له . ولما رأى سليم ذلك منه انصرف في صمت وهدوء دون ان ينبس بكلمة . لقد عجز لسانه عن صب جام غضبه على عزت دفعة واحدة فآثر الصمت على الكلام .

* * *

في يوم من ايام الخريف الثائرة برياحها اجتمع افراد اسرة جواد في منزلهم يتحدثون عن الحياة في الكويت ـ ذلك القطر النائي المحرق بشمسه .كانوا على استعداد للسفر الى ذلك القطر . وكانت حقائب السفر منتصبة بجانبهم . ولم يكن في جيب جواد سوى مبلغ من المال يكفيه اجرة للسفر الى الكويت .وقد حصل على ذلك المبلغ بعد ان باع الكثير من اثاث منزله . انقطع حاتم عن الدراسة ، وفسخت خطبة سلوى بعد ان خسر جواد حانوته . كل من افراد الاسرة اخذ نصيبه من الكارثة العظمى التي حلت بها . لم يبق لهم الا ان يطيروا الى تلك البلاد النائية ليجددوا حياتهم عند قوم لا يعرفون من ماضيهم شيئا .

نابلس   **عبدالحميد الانشاصي**

محمد رجب البيومي



بقلم محمد رجب البيومي

الخيال : نظلم السيد البكري اذا طالبناه في زمنه المنصرم بابداع الصور الادبية كما نريد في عصرنا الراهن ، لان الرجل قد تلقى الادب والبلاغة على اساتذة يفهمون من معنى التشبيه وغرضه ما لا يتفق مع ما نفهمه اليوم ، فالشيخ احمد مفتاح حين درس البلاغة والادب للسيد قد أفهمه خلاصة ما يحكيه قارئو السعد والايضاح من أن التشبيه هو اتفاق المشبه والمشبه به في وصف يجمعهما ، وان اركان التشبيه اربعة وطرفاه اما حسيان او عقليان او مختلفان ، وانه يأتي لعدة فوائد منها الايجاز والاختصار ومنها التبيين والتوضيح ومنها المبالغة ، ومنها التوكيد ، وان وجه الشبه يكون مفردا او مركبا او متعددا وان الغرض من التشبيه هو بيان حال المشبه ،او مقداره او تقريره ، او امكانه او تحسينه او تقبيحه مع ضرب الامثلة الكثيرة على ذلك مما يستجاد تارة وينتقد تارات !! ثم شاءت ظروف الاديب الناشىء ان يفتن بآثار كتاب الصنعة من ارباب الرسائل والمقامات ، وفيهم من يظن ان التشبيه كل شيء في ميدان الكتابة ، فاذا خلا سطر واحد منه هبط الاسلوب الى مستوى غير مقبول ، بل ان فيهم من يكد عقله ليجعل للشيء الواحد عدة تشبيهات يعقب بعضها البعض في تسلسل متتابع ومكمن الضعف لدى هؤلاء انهم غفلوا عن رسالة التشبيه في ادراك الصلة بين شيئين ادراكا تتأثر به النفس بحيث ينتقل احساس الاديب الى القارىء كما شعر به وعاناه ، فليس التشبيه ادراكا ذهنيا لاتفاق ما بين صورتين ، ولكنه لمح صلة بين امرين تحدث اثرا نفسيا يترجم احساس الاديب ليحس به السامع كما احس به المتكلم ، وليس من اغراضه الغرابة والاستطراف او بيان المقدار او ان وجود المشبه ممكن لان تعمد ذلك ينقل الصورة الادبية من حقيقتها الوجدانية الى تأليف ذهني يمكن تلفيقه لدى بعض المهرة من متدربي المنشئين !! واغفال هذا الاثر النفسي للتشبيه هو الذي اتخم كتب النقد والبلاغة بامثلة يستشهد بها في مجال الاستحسان والاستجادة ، وهي لا تساوي شيئا لدى النظر الصحيح ، وذلك نحو ما نراه من مثل قول القائل :

وكان محمـر الشقيق اذا تصوب او تصعـد
أعلام ياقوت نشرن على رمـاح من زبرجـد !



او قوله :

كلنا باسط اليد — نحو نيلوفر ندى
كدبابيس عسجد — قضبها من زبرجد

الى غير ما ينحو هذا النحو الملفق ، ولعل ابن المعتز هو الـذي فتح هذا الباب ، اذ اكثر من توليداته الذهنية الملفقة في التشبيه ، فخدع أئمة النقد حين حكموا بالجودة على مثل قوله :

وبدا الهلال كزورق من فضة — قد أثقلته حمولة من عنبر !

وهي صورة ملفقة لا تترجم عن شعور قوي او تؤثر في وجدان قارىء بصير*، ولكن مشايخ النقد قد أعجبوا بها ونسبوا لابن الرومي انه صاح يا غوثاه يا غوثاه حين سمعها ثم قال في مجال الاستعظام انما يصف ابن المعتز ماعون بيته !! وابن الرومي مظلوم دون نزاع ، فدارس شعره يعرف جيدا مذهبه في التصوير الادبي وهو من هذه الصورة المستجادة بمكـان بعيد !

والسيد البكري في وقوفه هذا الموقف من التشبيه الذهني لم يكن فردا منقطع النظير بين أدباء عصره ، فكلهم ورد مورده ونهل منهله ، ولم تعرف مكانة التشبيه على وجهها الصحيح الا بعد ان صحح مقاييسه الفنية ناقدو العصر الحاضر ممن درسوا النقد الاوروبي وحاولـوا تطبيق الصحيح النافع منه على ما يقوله ادباء العرب ، وليس العهد ببعيد بصيحات الاستاذ العقاد في وجه شوقي ، وتصحيح النظرة المخطئة عن التشبيه كما ظهرت آثارها في أدب امير الشعراء، ومما قاله الاستاذ العقاد بصدد ذلك ـ في الجزء الاول من الديوان .

«اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء ، لا من يعددها ويحصي اشكالها والوانها ، وانه ليست مزية الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ؟ وانما مزيته ان يقول ما هو ؟ ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به !

وليس هم الناس ان يتسابقوا في اشواط البصر والسمع ، وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه ، وخلاصة ما استطابه او كرهه ، واذا كان وكدك من التشبيه ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت اربعة أو خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعه وفكره صورة واضحة ، مما انطبع في ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان فان الناس جميعا يرون الاشكال والالوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس ، ولقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لانه يزيد الحياة حياة ، كما تزيد المرآة النور نورا ، فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ويزيد الوجدان احساسا بوجوده ، وصفوة القول ان المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره فاذا كان لا يرجع الى مصدر اعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات كما تعود الاغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر، فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما اخال غيره كلاما اشرف منه الا بكم الحيوان الاعجم ».

هذه عجالة نسوقها بين يدي الحديث عن خيال السيد البكري لننصفه ونعذره لدى لائميه ، فان بعض الذين يتحدثون عنه يشتطون في القسوة عليه دون مبرر ! واذا كنا قد نقلنا فيما سبق قول الدكتـور زكي مبارك (1) ان أدبه لا يختلف في جودته اثنان ! فاننا نعلم ان ادبه مما يختلف فيه الناقدون اختلافا يقف بهم على طرفي نقيض حتى ان

المازني رحمه الله قد قال عنه (٢) :

«ان ادبه قد مات في حياة صاحبه» وليس للسيد كما نعلم يد في موت ادبه اثناء حياته فقد قدر عليه ان يودع القلم قبل اكثر من عشرين عاما من تاريخ وفاته قضاها - اجزل الله ثوابه - حيا كميت ، ومن يدري لعله لو لم يصب بهذه الكارثة التي اطفات مصباح عقله ، وانضبت دافق شعوره لاستطاع ان ينتفع في مدى عشرين عاما بما انتفع به بعض زملائه من نقد مستنير ، فينهج في كتابته نهجا ينتقل به من الانشاء اللفظي الى التعبير الذاتي ، وتضيق بذلك الهوة الواسعة بينه وبين ناقديه الهادفين من امثال المازني رحمه الله ، وقد كان الاستاذ صديق شيبوب أرفق نفسا ، وأرحب صدرا من المازني حين قال عن بيان السيد (٣) :

«نجد ان السيد البكري يحاول الوصف الفني لا الوصف الواقعي ، ونجده يعمد الى التشبيه حتى نكاد نقول ان الكتاب (صهاريج اللؤلؤ) كله تشابيه ، وهو يتفاوت قوة وضعفا ، وغرابة وقربا ، ويتناول فيه جميع المعاني التي تمر بخاطره ، والصور التي يولدها خياله ، ويستعمل شتى الوسائل ، فالتاريخ والادب والنحو والصرف والعروض والبلاغة ، كل هذه مصادر يستلهمها فتاتي التشابيه بعضها تلو الاخر .»

وما دام السيد لا يكاد يترك التشبيه في تصويره الخيالي ، وما دام هذا التشبيه كما يقول الاستاذ شيبوب يختلف قوة وضعفا ويتناول جميع المعاني التي تمر بخاطره ، فقد آن الوقت لكي نعرض من خيال الرجل انماطا مختلفة لنرى مبلغه من التصوير .

يقول السيد في وصف الخمر :

خمر كانها الذيخ (٤) ، او المريخ ، خلقت قبل ان يخلق التاريخ ، عين الشمس في كاس ، وياقوت مذاب في اكواب ، شعلة شعلاء يوقدها الماء ، برق في غمامة ، ورد في كمامة ، منى ومنون ، وريق ليلى في فم المجنون ، كانها سراج يوقد في زجاج ، او اكسير (٥) او دمع طليق على أسير ، او دينار منقوش او رق المردقوش (٦) او عمود من صباح بين السقاة والاقداح ، وكان حببها عقد او دمع على خد ، او لام والماء حسام ، منظار يكبر المحسوس في النفوس ، ان فرح وان ترح ، تبعث على الصدق في النطق فينعقد اللسان للكتمان ، تحكم في العقل حكم من جار ، او حكم الزمان في الاحرار ، شرب يلذه غير الظمآن ، ولا يروي الماء منه وهو صديان ، وسقي ينبت الورد في الخدود ، والرنح في القدود ، كانها في النفس روح الرجاء وراحة اليأس ، منطاد يخرج بالنفوس من هذا العالم المنكوس ، جمر ولا شرر ، ونفع اقل من ضرر.

عجبت لمن عد بعض البحار　　تفريقه نفسه في قدح»

فهذا وصف فني قوامه الخيال التفسيري من تشبيه واستعارة وكناية ، تقرأه فتجد اقله معروفا لديك مثل ان الخمر خلقت قبل ان يخلق التاريخ وان حببها عقد او دمع على خد ، او انها عمود من الصباح او ياقوت مذاب! فذلك مما نضحت به الذاكرة دون نزاع ، ولكن خيال السيد في هذه القطعة قد علا على الذاكرة علوا ملموسا ، او ان الملحوظ سما على المحفوظ سموا ينبيء عن معدن الكاتب الادبي وذوقه الفني ! فمما ابتدعه هذا الخيال المفتن ان الراح منظار يكبر المحسوس في النفوس . وانها تبعث على الصدق في النطق فيعقد اللسان للكتمان فذلك تصوير بارع لانسان تسلبه الراح عقله اليقظ الحريص فيهم ان يفصح عن دخيلة سره ، ولكن لسانه معقول من النشوة لا يكاد يبين !! ان تسجيل هذا الخاطر مما يتم عن دقة الملاحظة وحسن التعليل ، وكون الخمر شرابا يلذه غير الظامىء ينبت الورد في الخد والرنح في القد مما يروق هنا تسطيره ، بل ان عبارة ينبت الرنح في القد لتحمل الهام شاعر مطبوع ، ومن الطريف الجيد قوله انها منطاد يخرج بالنفوس من هذا العالم المنكوس اما كونها جمرا ولا شرر فمما تناهبته الاقلام ويذكرنا خيال هذه القطعة بأخت لها قالها السيد يصف خليج القسطنطينية عند غروب الشمس فيرسم لوحة رائعة لمنظر بديع حين يقول :

«فاذا رأيت ثم حين دلوك (٧) الشمس وقد شعشع نورها كل بناء وغرس ، وقد عكس في الماء صور ما يحيط به من الاشياء ، أبصرت في الماء قبابا من ذهب وأهلة من لهب ، وكثبانا من زمرد ، ووديانا من زبرجد ، وجبالا وايفاعا ، وحصونا وقلاعا ، وسدرا ودلاعا (٨) ، وسقوفا من جوهر ، وعمدا من مرمر ، وصرحا من قوارير ، وتماثيل وتصاوير ، ودورا وحورا ، ونارا ونورا ، وحللا تطوى تنشر ، وسيوفا تغمد وتشهر ، واقمارا تصاغ وتكسر ، فكأنما تقرأ في البر قصيدة من شعر ، وتنظر في البحر فانوسا من سحر »

فماذا نرى في هذا الوصف الجميل ؟ اننا نشهد ريشة فنان مقتدر ترسم الصور الحسية رسما دقيقا معبرا ، ولسنا مع من يعيبون السيد بالوقوف عند المرئيات المحسوسة في تصويره الادبي دون ان يتغلغل فيما دون السطح مسترسلا مع خواطره ، لان لكل فنان مجال تبريزه وجهة اختصاصه أ وحسبنا من الكاتب ان يشتهر باجادة لون خاص من الوان الوصف ! وبخاصة ونحن نحلل ادبا قاله صاحبه في مرحلة انتقال حاسمة تختلف فيها موازين النقد وطرق التعبير ! وقد سبق ان اوضحنا ان السيد وزملاءه يمثلون في فجر النهضة مدرسة المحاكاة المتقنة في النثر الادبي ! ولن ننتظر منه ومن أصحابه طفرة واثبة الى الاوج بل يكفي ان نرى جودة النسق ، واناقة العرض ، وجمال التعبير ! ومتى تم ذلك فقد ادى الكاتب دوره في انتشال النثر الفني من ركاكة اللفظ وتفاهة المعنى وثقل المحسنات !

وقد نجد في حديث السيد عن نابليون ما يمثل المرئيات المشهودة، والخواطر الخافية معا مما يطفو في الاولى على السطح ، ويمضي في الثانية - نوعا ما - الى الداخل ، اذ ان وصف البكري لمعارك القائد الفرنسي مما يرسم المنظور المشاهد رسما واضحا ، فهو مثلا يقول عن جيشه الحربي دوسر (٩) بسط جناحيه على الشعاب ، كما بسطت جناحيها العقاب ، فلا ترى ثمة الا اعلاما تخفق ، وحديدا يبرق ، وجنودا في الماذي (١٠) كانها صخور في ماء ، او افاعي عرماء (١١) ، او اسود والسيوف انياب،او عقارب شائلات (١٢) الاذناب،ثم حم القتال، وزلزل الزلزال ، واتقد الوهج ، وسطع الرهج ، فكانما ترى جانا من مارج (١٣) من نار او اعصار يدور فوق اعصار ، وكأنما مدينة في حريق ، وسماء تهطل برحيق ، وكأنما فكت الشياطين ، وانسابت الثعابين ، وكأنما في قلب الارض وهل ، وعلى خدها من الدماء خجل ، وكأنما في الجو من الدخان والنار ، ليل وشروق ، ومن الرصاص والشفار وبل وبروق ، وكأنما كسرت قبة السماء فهوت بما فيها من نور وظلماء ، وكأنما كل صف من الجنود يميل بحائط من جهنم فيلقاه الاخير من الحديد بلج من يم ، فما ينكفىء حتى ينطفىء ، وبين ذلك خيول تكدس وسلاح يضرس ، وجماجم تفلق ، واشلاء تفرق ، ومنى ومنون ، وطعن كأنه طاعون وشهيق وزفير ، وعير ونفير ، وصرعى كأنما غالتهم الكؤوس ، وواد يسيل على العلمين فقاقيعه الرؤوس ، ومقلة في مخلب طائر، وكبد في رجل عاثر،وبنان في ناب وحش كاسر.

كم رأس شخص بكى من غير مقلته　　دما وتحسبه بالقاع مبتسما

ثم يمضي في وصف بطولة القائد حتى يقف عند خاتمته المؤسية فيجاوز السطح قليلا الى ما بعده حيث يجول في اعماق القائد المنهزم يتحسس آماله الضائعة ، ويصف اساه المبرح ، ويصور شجونه الكظيمة في معتقله الكئيب ! ومهما قيل عن قرب هذه المعاني ويسر تناولها فهي ليست من المنظور على اية حال ! ولن تخلو من استكناه واستشفاف ، يقول السيد توفيق :

« وكأني انظر اليه بعد ذلك وقد جار عليه الزمن الجائر ، ودارت عليه الدوائر ، وامسى جيشه الذي قهر الارض وهو مقهور ، كآنية

الزجاج قابلت غيرها ، فالكل كاسر ومكسور وانتهى به السير من خير الى ضير ، كما يصير الهلال بسيره بدرا ، ويمحق به تارة اخرى ، وزال ملكه الفخم ففاب مغيب الشمس في افق من دم ، واصبح ولا دولة ، ولا باس ولا صولة ، كصنم الجاهلية في الملة الاسلامية ، كان بالامس ربا فاصبح حجرا صلبا ، واذا هو معتقل في جزيرة قاصيـة وصخرة عارية ، كانه قسور نقل من بيداء ، او غيل قصباء ، الـى قيود واصفاد ، وبيت من صنعة الحداد فهو يدور ويحور .

يطا الثرى مترفقا من تيهه   فكانه آس يجس عليلا

تارة يسم ويعجب ، من دهر يكسر النبع (١٤) بالغـرب (٥) ، ويصيد الصقر بالخزب ، ومرة يطرق ويتفكر ويفتح عينيه فيرى كثيرا ويغلقها فيرى اكثر ، وحينا يحني الرأس من الياس ، وآونة تبعثـه الاوجال الى الآمال فيود لو قام شبل من نسله ، او رجل من أهلـه ، فاسترجع ملكه بعد الذهاب ، وحفظ من نور ذلك المجد ، بقدر مـا يحفظ البدر نور الشمس بعد الغياب ، وهيهات ان يقوم الافيل (١٦) بعبء الفيل اذ تتساوى الاشياء اذا تساوت الاسماء أين ذباب (١٧) السيف من ذباب الصيف ، وأين السنبلة الخضراء من سنبلة السماء ، وقد يقف بقامته القصيرة ، على قنة من قنن تلك الجزيـرة ، يروح الفكر ، في امواج البحر ، واذ بظله قد طال على لججه ، وامتـد بعيدا على ثبجه ، فيرى في قامته وهذا الخيال ، فرق ما بين حالته وما كان فيه من الدولة والاجلال، فيبعد من نفسه الامل ويقرب الاجل!»

هذا خيال شاعر حقا !! وله في صهاريج اللؤلؤ أشباه ونظائر ، واذا انتقص ناقدوه سيطرة ذاكرته الحافظة ، فان هذه الذاكرة نفسها هي التي جعلت البارودي يروض الشعر مبتدئا وينهج نهج الاقدمين محاكيا حتى صار ابرع معاصريه ! على ان هذه المحفوظات ترجمت لدى البكري هنا عن شعور صحيح ! ووافقت مدلولا صادقا مـــن نفسه ، فتراءت وكأنها ابتكار جديد !!

واكثر ما وقع فيه السيد من عثرات التشبيه تطرق اليه مما فهمه من قواعد علم البيان فقد كان مما اقتنع به ما يعرف بالتشبيه المتعدد ومن انواعه ما يتعدد المشبه به دون المشبه ، وقد اغرم به السيد ، واعتده فطنة الابداع والبراعة فركب متن الشطط في اكثر مـا جاء به من هذا الضرب كقوله في وصف الهلال .

«وحتى اذا أخضل الليل وارخى الذيل بدا الهلال كانه خنجر من ضياء ، يشق الظلماء او قلادة ، او سوار غادة ، او سنان لـــواه الضراب ، او الليل فيل وهو ناب ، او عرجون قديم ، او نون بخط الكاتب ابن العديم ، او برثن ضيغم ، او مخلب قشعم ، او ماء خرج من أنبوب في روض ، او ثمدا في اسفل حوض ، او وشي مرقوم او دملج من فضة مفصوم ، او قلامة ظفر ، او صفار في شبك من بحر »

فالاكثار من المشبه به على هذا النحور يجعل التشبيه مسالـة ذهنية لا تنقل احساسا او تشبع عاطفة ، ويذكرنا بما سبق ان نقلناه عن العقاد حين قال لشوقي : « واذا كان وكدك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على ان ذكرت اربعة او خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد» ثم ان البكري هنا لم يصب توفيقا في اكثر ما قال ، فالليل لا يشبه بالفيل اطلاقا حتى يكون الهلال نابه ، وما أضل صورة الهلال واتفهها حين يكـون ثمدا في حوض او قلامة ظفر مهما ذكر ذلك بعض السابقين ، امـــا تشبيه الهلال بنون من خط ابن العديم فهو مبعث العجب ، لان أبا العلاء حين قال في سقط الزند

ولاح هلال مثل نون أجادها   بجاري النضار الكاتب ابن هلال

كان يريد ان يتعالم بمعرفته رسم الحروف وهو رجل ضريـر لا يبصر ، فشبه الهلال بنون بخط الكاتب ابن هلال وهو لم ير المشبـه والمشبه به معا ، فجاء البكري ليجعل النون من خـط ابن العديـم لتوافق السجعة ذات العرجون القديم !

ولئن كان ابو العلاء قد تكلف فالبكري قد تعسف ! وليس ما ذكره علماء البيان عن التشبيه المتعدد وحده هو الذي حبب للبكري هـذا الضرب من الحشد الذهني بل ان ولوع كتاب العصور المتأخرة بهـذا النمط السقيم قد اكد منزلته ،وجعله مجال البراعة والابداع ، ومنه ما قاله ابن حبيب الحلبي في وصف السفينة .

« كأنها وعل ينحط من شاهق ، او عرباض سابق ، يحثه سائق ، او عقرب شائلة او عقاب صائلة ، او غراب اعصم ، او تمساح او ارقم ، او ظليم نفر في الظلام ، او جواد فر من مستنكفا من صحبه الانام .» الخ ما يرد هذا المورد بما يمكن ان يسمى بتتابع التشبيهات !

وكان جديرا بالسيد ان يلحظ الجو النفسي للتشبيه ، لا كما فصله ناقدو اليوم بتعليله العلمي وتشريحه الفني فهذا ما لم يتهيأ له في عصره بل كما ألم اليه القدماء فقد انتقدوا مثلا قول ابي تمام :

كان شقائق النعمان فيه   ثياب قد روين من الدماء

وقول العرجي :

ودب هواها في عظامي وحبها   كما دب في الملسوع سم العقارب

اذ ان تشبيه الورد الاحمر بالثياب الراوية من الدماء في مقام الاعجاب وتشبيه الحب بالسم عند من سعد بالحب كالعرجي لا من شقي به لا يعلي مقام التشبيه بل ينحدر به الى الاسفاف ! وللسيد من ذلك امثال ، فهو يشبه غابة بولونيا في المساء بصحيفة بيضاء كسرت عليها زجاجة من حبر ويشبه رقص الحسان المطرب في الرقص المعجب باعصار او حرف جار! وأنا لا اعرف كيف يأتي حرف الجر مشبها به في هـذا المعنى وما وجهه ؟ ثم يشبه الراقصة بسير النضناض (الحية) علـى المرضراض (ما دق من الحصى) غافلا عما ووجه به عمر بن ربيعة مـن نقد حين قال عن صاحبته :

وارجحنت في حسن خلق عميم   تتهادى فـي سيرها كالحباب

ولذلك امثال مما تعسف فيه السيد ، اما الاستاذ صديق شيبوب فقد دقق الحساب مع الرجل حيث اخذ عليه من التشبيه ما لا نـراه موضع مؤاخذة كبيرة لتردده وشيوعه وانطباع الآذان على سماعه وان تكلف قائله ، يقول الاستاذ صديق «ونجد هذا النثـر المسجع يقـود احيانا الى تشابيه لا نستسيغها كثيرا ، ولا أظنها كانت تستساغ عند كتابتها مثل قوله : وحسان غيد كالاماليد في وجوه كالدنانير واوساط كاوساط الزنابير وشعر كالليل او اذناب الخيل » واخال الامر هنـا في التشبيه بالليل والاماليد والزنابير أهون من ان يكون موضع مؤاخذة وان تطور الاذواق من عصر الى عصر هو الذي جعل الناقـد يدقـق الحساب ! ناسيا ان البكري كان يعيش بوجدانه الادبي بين الخوارزمي والصابي والبديع .

وننتقل من هذه المآخذ لنسجل لصاحب الصهاريج فـي مضمـار التشبيه روائع جميلة حقا كأن يقول «والمجد كالخمر كلما طالت عليـه الآماد جاد ، وكالحديث كلما علا في الاسناد ساد !!» .

او يقول ـ وفيه من الخبرة الاجتماعية والنفسية شيء كثير .

---

(١) النثر الفني ص ١٩٠ ج اول . (٢) شخصيات عربية ص ١٠٢ للاستاذ صديق شيبوب . (٣) شخصيات عربية ص ١٠٤ للاستاذ صديق شيبوب . (٤) كوكب احمر . (٥) روح الحياة . (٦) نبت كالريحان . (٧) غروب . (٨) نوع من المحار . (٩) جيش . (١٠) الدرع اللينة . (١١) رقشاء . (١٢) رافعات . (١٣) شعلة ملتهبة . (١٤) شجر صلب . (١٥) شجر ضعيف. (١٦) صغير الابل . (١٧) حد . (١٨) الذخيرة ج ١ ص ٢٠٠ . (١٩) فنون الادب ص ١١ ــ ١٢ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود . (٢٠) نقد النثر ص ١٠٧ . (٢١) الفوائد والقلائد ص ١٤٢ . (٢٢) سر الفصاحة ص ١٦٧ . (٢٣) المثل الثائر ص ٧٦ . (٢٤) دفاع عن البلاغة ص ١١٨ . (٢٥) افخر . (٢٦) قبيلة . (٢٧) عمرو بن تقن. (٢٨) جيش .

« والحمية من الانام كالحمية من الطعام ، وخليق بمن ارتطم ، في المزدحم ، ان يصاب ، ببعض الاوصاب »

اما ابلغ ما أعجبني من تصويره فقوله في منزل مهجور خرب « واذا بمنزلها في الدور اشعث مهجور ، كأنه محجر بلا حدق ، او شجر بلا ورق ، وكأنه مات بعد ساكنيه ، وكأنهم كانوا روحا فيه .»
واخال السيد قد احتذى فيه حذو ابي الحسن التهامي اذ يقول :

حانت لبعد الظاعنين ديارهم   فكأنما كانوا لها ارواحا ..

اما قوله الرائع في وصف القطار «وقد يدور في الصعيد كخذروف الوليد ، ان ارتقى فدعوة المظلوم او انحط فروح الظلوم» فجميل حقا لو لم يكن نظر فيه الى قول ابي العلاء ، وقد نقله في فحول البلاغة ص ١٨١ :

من لي بناجية سفيهة مدلج   فالعيس لم تحمد ذوات حلوم
روح الظلوم اذا هوت فاذا ارتقت   فكأنما هي دعوة المظلوم

ولقد كانت هذه الصور المعنوية من امثال روح الظلوم ودعوة المظلوم وموت المنزل بعد فراق ساكنيه جديرة ان تجذب اليها الكاتب فيقلل بعض الشيء من صوره المنظورة غائصا الى ما بعدها ، ولكن قراءاته الكثيرة لذوي التشبيهات السطحية قد حالت دون الغوص الى غيرها في كثير مما قال.!

ونحن نكتفي منه بأن يحس فيعبر مجددا في الثوب تارة ومقلدا فيه تارات مقدرين له وثباته الشعرية التي تشف عن روح الفنان في نفسه، وهي روح حية تضرب حولها الاسدال والسجوف فتابى الا ان تضيء الافاق بمثل قوله الرائع عن مكان مؤنس جميل

« سراء في جميع الانحاء ، وراحة في كل ساحة ، فكأنما نفس الانسان في كل مكان ، عين ماء ، تصف ما يقابلها من الاشياء ، فان كانت حذاء رياض ، وفضاء وغياض ، الفيت فيها روضا وزهرا ، وسماء وفجرا ، وان كانت بين الحيطان الصماء ، وبيوت المدن الدكناء ، الفيتها معتمة كدراء مظلمة !!»

أليست هذه روح شاعر تقلله الاصفاد ! وكان اولى به ان يطير في كل جو دون ان يحبس في بعض الاقفاص ؟ ولننقل الى التعبير من عناصر اسلوب البكري فنقول :

الديباجة : اما التركيب والالفاظ لدى السيد ! فان ما استلفتنا من نماذجه الادبية ينبئنا عن سمتين بارزتين من سمات ديباجته وهما الغرابة والولوع بالاسجاع .

فالغرابة التي توغل كثيرا في الغموض قد تأكدت لدى الاديب بتأثير استاذيه اللغويين الخطيرين الشنقيطي وحمزة فتح الله ! فقد أفهماه منذ نشأته ان الكلام لا يبلغ ذروة البيان دون الغوص على الغريب البعيد ! كما روى عن الشنقيطي أغوص اراجيز العرب واشدها غموضا وابهاما ثم عكف على شرحها ، فكثرت ثروته اللغوية كثرة جعلت هيامه بالغريب امرا لا مفر منه ! وقد استشعر البكري وعورة مسلكه وانصراف الاسماع عن اغرابه فقال في مقدمة الصهاريج

«وقد التزمت في عباراتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وانا اعلم ان من الادباء اليوم من ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل ، فلم يثنني ذلك عن ان اودع كلام الاعراب بهذا الكتاب» وقد فات السيد ان يدرك تطور الاذواق من عصر متقدم الى عصر متأخر ، فان فصح الحجاج وأراجيز رؤبة بن العجاج قد قيلت في زمن كانت الفصحى به لغة حديث وخطاب ، وكان كل عربي صريح في الدولة الاموية ينطق بما يعد حجة في اللغة والتعبير ، فاذا استمع الى خطب الحجاج وجد لديه من سليقته اللغوية ما يجعل غامضها واضحا مفهوما ! اما اراجيز رؤبة فقد عافها الادباء وتعلق بها اللغويون فمحاولة استخدام الفاظها في الكتابة الفنية في هذا القرن شذوذ غريب يقابل بالاعتراض لا محالة ! على ان هناك وجها واضحا لجواز الغرابة في خطب الحجاج وشذوذها في بيان السيد ! فالحجاج كان خطيبا يقرع الاسماع بوعيده وتهديده ، وسامعوه عرب يهتزون للفظ المدوي المجلجل فاذا شن عليهم الغارة بصاحب الغريب ، فقد جاء الشيء من بابه ، حيث استعان بصخرية اللفظ وقعقعته على ترويع الافئدة ، وتشتيت النفوس !! اما السيد فيصف غابة بولونيا وحدائق تركيا ومروج مصر بما يتيح للغة الاديب المرهف ان تنساب مترقرقة في سهولة شادية ، ولكن البكري تجافى عن الغناء الرخيم العازف ، الى القعقعة والصليل ! وكأنه نسي حين تمسك بفصح الحجاج ولسان رؤبة بن العجاج ان لكل مقام مقالا ؟ وان للغرابة مكانا وزمانا غير مكانها في الصهاريج وزمانها في مفتتح القرن العشرين! ونحن لا ننكر ان نجد الان في أساليب البلغاء المحدثين من أمثال الرافعي والبشري والزيات بعض الغريب ، لان هؤلاء الاعلام يضعونه موضعه دون ان يستزيدوا منه او يباهوا به ! وكذلك كان القدماء .

ذكروا ان ابا عامر بن شهيد الاندلسي حكى ان يوسف بن اسحق الاسرائيلي رآه يستعمل وحشي الكلام في مواضعه فاستعمل شيئا منه وعرضه على ابي عامر فانكره فظن يوسف ان ابن شهيد يحسده وعرض كلامه على ابن الافليلي فقال له : تنكب هذا الكلام فقال يوسف متعجبا : ان ابا عامر يستعمله فرد عليه يقول هو أدرب منك بالغريب ! اذ يضعه في موضعه !! (١٨)

فاللفظ الغريب لا يذم في مناسبته الدقيقة ! ولكنه في كلام السيد طوفان يرمي بالزبد ، وقد ساعد على تشتيت ذهن القارئ ، فضرب بين اللفظ والعقل بحجاب كثيف اذ لا يستطيع ان يفهم سطوره دون الرجوع الى شروحها في الهامش ، وقد جاءت هذه الشروح اضعاف اضعاف ما كتبه البكري !واني لأسائله ـ طيب الله ثراه ـ من وراء الغيب ، هل كان سامعو الحجاج في حاجة الى شروح مماثلة حتى ينهج نهجه في التعبير ؟ عالما ان للغرابة في اللفظ مواضع غير ما اكثر فيه صاحب الصهاريج وقد بين هـ.ب تشارلتن بعض هذه المواضع في كتابه فنون الادب فقال :

« يلجأ الشعراء احيانا الى اللفظ الغريب للزيادة من قوة التأثير، ولا سيما اذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس في الحياة الجارية ، فاذا رأيتهم يطلقون على الاشياء غير اسمائها فاعلم انهم لا يصنعون ذلك عبثا ، ولو أرادوا الاسماء المعروفة للاشياء لأطلقوها ... يجب ان يكون الشاعر صادقا في التعبير عن شعوره فاذا اراد شيئا مألوفا فليطلق عليه اسما مألوفا ، اما اذا اراد صورة فيها شيء من الغرابة لانه احس في نفسه انها غريبة فيجوز له ان يلجأ الى اللفظ الغريب المبهم » (١٩) .

وكل من قرأ الصهاريج يعلم ان اكثر غريبه مما يساق دون ضرورة ملحة فهو بمكان بعيد عما عناه تشارلتن حين حبذ اللفظ الغريب ! ولا أظنني في حاجة الى ان اسود هنا بعض هذه الصفحات بأمثلة للسيد يفيض بها الغريب ! ويغمض فيها العويص ، فما يوم حليمة بسر وذلك مثل عربي ذائع تردد ايضا في الصهاريج !

اما السجع ، فقد التزمه البكري التزاما واكثر ما جاء منه في بيانه مما يجيش به الطبع ، وتمليه القريحة في يسر وبعضه مما استبد به الاغراب والتقعر ، وللنقاد في التزام السجع على هذا النحو مذاهب متعارضة فقدامه لا يستحسنه الا عند سماح القريحة به وفي بعض الكلام لا في جميعه فاما ان يلزمه الانسان في جميع مناقلاته ورسائله فذلك جهل من فاعله وعي من قائله (٢٠) . وقد حذا حذوه ابن ابي الاصبع والشهاب الخفاجي فقال الاول لا تجعل كلامك كله مبنيا على السجع فتظهر فيه الكلفة ويتبين فيه اثر المشقة ، وتتكلف لاجل الاسجاع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ السافل وربما استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع فجاءت نافرة من اخواتها قلقة في مكانها (٢١) .

وقال الثاني وكان الفصيح في كلامهم ألا يكون كله مسجوعا لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع ولا سيما فيما يطول من الكلام (٢٢) .

أما ابن الاثير ـ وكان من كبار الساجعين ـ فيشترط في السجع البراءة من التكلف فقط فاذا التزمه الكاتب المطبوع على هذه الشريطة « فانه يكون قد ملك رقاب الكلم ، ليستعبد كرائمها ويستولد عقائمها وفي مثل ذلك فليتنافس وعن مقامه فليتقاعس » (٢٣) .

هذا ما قاله بعض النقدة من القدماء.اما الاديب الكبير الاستاذ احمد حسن الزيات فلم يعبأ بالتزام السجع او المراوحة فيه ولكنه عمد الى اللباب الخالص من هذه القضية فقال :

«والناس لا يكرهون السجع لانه سجع ، ولا البديع لانه بديع ، وانما يكرهون التكلف والتمويه والبهرج ، وتنميق الالفاظ على المعنى التافه ، وترصيع الاسجاع في الكلام الفث كما يكرهون الزخرف المنمنم على الجدار المنهار ، والحلة الموشاة على الجسد المسلول» (٢٤) وكان الاستاذ الزيات لا يعنيه ان يلتزم السجع او لا يلتزم انما يعنيه الصدق في التعبير ، والصدور عن الاحساس فاذا تم ذلك في ظلال السجع فهو المحبذ المقبول واذا غلب التكلف والتمويه والبهرج فهو التافه المرذول ، ونحن اذا وضعنا ادب السيد في ميزان الاستاذ الزيات ، وجدنا لديه ما يصدر عنه من رقة الحس وصدق الشعور ، وذلك ما يجعلنا نحتفل بكثير من نثره الفني دون ان نحتفل بنثر صديقه واستاذه حمزه فتح‌الله مثلا ، ولن يعيب الشيخ حمزه الا يعد من ابطال النثر الفني الاصيل ، فحسبه ان يكون استاذ ادب كبير وعالم لغة جهير وشيخ فقه وديـن !!

بقي ان اقول ان من جناية السجع على اسلوب السيد ، انـه يدفعه كثيرا الى حشد اسماء مختلفة لاناس ومدن ومشاهد ، قـد لا تكون هناك ضرورة فنية لتواليها غير الحرص على السجع ! فهو مثلا حين يصف غاب بولونيا وما تعج به المدينة الفرنسية من أناس وحركة وضجيج وتدفع يقول :

«وقد حاشت الطرق بالسيارة ، وزخرت البرازيق بالنظـارة ، فكأنما انفضح سيل العرم ، وكأنما في كل سيل جيش منهزم ، وكـأن كل بهو ايوان ،وكأن كل شاهقة رأس غمدان ، وكأنما كل بستان شعب بوان ، وكل حائط سد ذي القرنين ، وكل طريق واد بين الصدفين ، وكل قنطرة قنطرة خرازاذ ، او قنطرة البردان ببغداذ ، وكل قصـر قصر المشتهى ، وكل كنيسة كنيسة الرها ..»

فانت ذا ترى السجع قد حتم على السيد ان يحشد اسماء مشتهرة وغير مشتهرة دون موجب ، فاذا كان القارىء يعرف شيئا عن قصـر غمدان وشعب بوان وسيل العرم لاشتهارها ، فان يضطر الى البحث عن حيثيات النكرات من امثال قنطرة خرازاذ ، وقنطرة البردان ببغداذ ، وكنيسة الرها مهما قيل عن بعضها انها من عجائب الدنيا ! واذا انتقل القارىء الى تفهم الالفاظ والبحث عن المعميات فقد ضاعت متعة القراءة وفقد التأثير الادبي مدلوله النفاذ .

ومما يؤكد ان السيد يسوق امثال هذه الاسجاع دون حاجة فنية الى سوقها ، انه يختار اسماء كثيرة لا يتطلبها الموقف . فهو مثلا حين يتنبأ لمولود صغير بالمجد والسعادة في المستقبل لا يكتفي بأن يذكـر اسما تاريخيا لعلم من الاعلام يتوقع ان ينهج نهجه المولود بل تسوقـه السجعات الى حشود من الاسماء تتجمع في مثل قوله :

«وكأني به وقد شدا يلعب بالكرة كما يلعب الصبي بالكرة واذا هو أجود من حاتم ، وأباى (٢٥) من حنيف الحيانم (٢٦) ، واحزم مـن سنان ، وأعدل من الميزان ، واحمى من مجير الظعن ، وأعقل من ابن تقن (٢٧) ، وأحيا من كعاب ، واحلم من فرخ عقاب ، وأجمل من ذي العمامة ، وآثر من كعب بن مامة ، وأجسر من قاتل عقبة ، وابطش من دوسر ، وأجرأ من قسور ».

فأي مولود سيجتمع له ذلك شجاعة وحزما وعدلا وحلما وجمـالا وحياء وجودا وايثارا وعقلا ...وما هذا التشبث حتى بما لا يعقل معناه الان ولا يسيغه الذوق المعاصر فأي حليم يرضى ان يكون أحلم مـن فرخ العقاب مهما جرى بذلك المثل القديم ! ومن هو سنان الذي ضرب به المثل في الحزم لقد بحثت عن بعض مواقفه فلم اجد غير ترداد هذا المثل يتناقله حافظ عن حافظ ! ثم من حنيف الحيانم هذا وما تاريخه!! اما ابن تقن فلم اسمع به الا من البكري وما قرأت لفظا واحدا عنـه قبل تصفح الصهاريـج !

وقد أوقعه الولوع بالسجع في اخطاء واضحة ، فالسيد يقول في وصف جو جميل ومناخ معتدل ص ٢١٥ وكأنما استدار الزمان وكأن آذار نيسان ! ففهم ان آذار من شهور الشتاء ونيسان من شهور الربيع، ومن العجب ان ينص على هذا الفهم شارحا الصهاريج ! وكل شاد في الادب يعلم ما قال الشعراء عن آذار اذ انه ونيسان متعاقبان وهمـا مارس وابريل ، ولكن استدارة الزمان تتطلب نونا في آخر نيسان فلا بد ان يبدل وضع آذار !

ويقول ص ١٢٩ وكثيرا ما ينشدنا احمد بن سليمان ، بأقعة معرة النعمان ، وربما أسمعنا ثعلب عن قطرب ! ولم يكن ثعلب مـن رواة قطرب ، وما اتيح له ان يشهد مجلسه اذ أن قطربا توفي سنة ٢٠٦ هـ وثعلبا ولد سنة ..٢ فهل اخذ عنه وروى أدبه وهو في لفائف الرضاع ومهد العظام ؟ او ان باء ثعلب قد قسرت باء قطرب قسرا على الخضوع والانصيـاع .

اما الذي عجبت له كثيرا فهو الخطأ النحوي الواضح في قوله ص ٣٢٠ في وصف حديقة في ليلة قمراء «وكأن البدر عين ، يشيل عليها بلجين ،وكأن في كل خوط سراج (كذا) ، وكأن في كل بركة زئبق رجراج (كذا) ، وكأن على الشعاب سراب (كذا) وكان على الشارحين أن يبادرا بتصحيح هذا اللحن الواضـح بدل ان يقفـا طويلا عند قول البكـري ص ١٦٥ :

وان تجزعي للبين لست بجازع ولا تارك رأي الصواب المسددا

فيقول الشارحان: ان الشرطية اختلف في جوابها هل يقرن بالفاء او يصح حذفها منه قال الكثير من النحاة بصحة حذفها منه وعلى ذلك مشى السيد المؤلف على قولهم ، والمسالة في الوقوف عند اقتـران جواب الشرط بالفاء كانت تحتم وقوفا آخر عند رفع اسـم كأن !! وتكرار رفعه ثلاث مرات ! أما الاستشهاد بالشعر فمن خصائص أسلوب البكري ، اذ لا يكاد يترك معنى دون استشهاد ، وقد يجمع أبياتـا مختلفات من قصائد منوعة في موضوع واحد ، تطول حتى تبلغ تسعة أبيات كما في ص ٣٨٦ ولكنه يضل موضع الاستشهاد احيانا فيخطئه ، وأمثلـة ذلك :

١ ـ يتحدث السيد عن اصدقائه في العزلة ممن يقرأ آثارهم من الادباء والعلماء فيقول ص ١٢٦ وصحبي في هذه العزلة نفر من صيابة الاقوام ، ولباب الانام ، فمنهم ابو تمام ، والحارث ابن همام ، وطرفة بن العبد وعروة بن الورد ، وكثيرا ما ينشدنا احمد بن سليمان باقعة معرة النعمان وربما اسمعنا ثعلب عن قطرب ، وان شئنا حدثنا افلاطون ونادمنا ابن زيدون ، وعالجنا بقراط ووعظنا سقراط ثم يستشهـد بقـول الشنفري :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيال

فهل يكون هؤلاء الاعلام منه بمنزلة الذئب العملس (الخبيث) والنمر الاخلس والضبع وانثاه من الشنفري !! مع ان الشاعر الصعلوك لـم يصحب هذه الحيوانات الا مضطرا حين ضاقت به الارض وخاف على نفسه من الناس ! فاراد ان ينفس عن صدره فقال لبني قومـه ان الذئب والنمر والضبع على شرها الفاتك أحنى علي من لقائكم ؟ أيكون هذا القول مما يستقيم به الاستشهاد لدى البكري فيما ذكر من سياق .

٢ ـ يتحدث السيد عن أسر نابليون في جزيرة نائية فيقول ص ٨١، فكأنه قسور نقل من بيداء او غيل قصباء ، الى قيود واصفاد من صنعة الحداد ، فهو فيه يدور ويحور ثم يعقب ذلك بقول المتنبي فـي وصـف الاسـد :

المدينة المسحورة

الدكتور جمال مرسي بدر

الجزائــــر

مدينتـي دون السماء
رؤيا تلوح في الضحى .. تعوم في بحر الضياء
رؤيا تحث الفارس الساعي اليها من بعيد
قلبي يا فارس أوهامي كم أنت عنيـد

مدينتـي ذات الالق
تلألأت في الافق نجما وسط حمرة الشفق
أريد ان آوى اليها قبل مصرع الظلال
قبل اختناق الكون بالاحزان في كف الليال

مدينتـي المحببـه
تحيي مناي في المدى قبابها المذهبه
وسورها العاجي ذو الابراج يعشي بصري
يشع نورا وهو مني دون مرمى حجر

ان معـي مفتاحها
فليس غيري من تناهى واستشف روحها
بالبذل .. بالمنح .. بلا من بلا وهم الجزاء
ينال ذاك الخاطر الخافي على ظن الخفاء

ها انني ببابهـا
أهم ان اسمع دقات فؤادي مـن بها
أمـد كفي نحو حلقة الباب ولكن .. أسفا
أمامـي اللاشيء .. حتى الحلم ولى واختفى

واستدير يائسا
اذا بها .. مدينتي .. تحتل عبرة الاسى
أبصرها بعيدة جذابـة كعهدهـا
تشـد قلبـي نحوها قسرا برغم بعدها
برغمـه ؟ لاجلـه ؟

سـر خفـي ضاع هذا العمر دون حله
كل الذي أدريه اني ليس لي اليوم خيار
لا بد من بلوغها ليستقر لي قـرار

يطأ الثرى مترفقا من تيهه   فكأنـه آس يجس عليـلا

ومعروف ان المتنبي يصف اسدا متعاظما تياها يسير في رفـق متشامخ دون ان يعجله شيء ! وذلك قبل ان يفاجأ بمنازلة البدر بن عمار ؟ فهل كان نابليون في أسره الباكي ودمعه المذرف كأسد تياه يطأ الثرى مترفقا حتى يجوز الاستشهاد أو ان السيد غفل عن السياق .

٣ ـ يتحدث السيد عن الريف فيصف مياهه وطيوره وحقوله ثم يقول عن نواعيره ص ١١٠ : « ونواعير كأنها عشاق ، بعد فراق ، لم يبق فيها غير ضلوع ، وانين ودموع ، قد اوشم النبت حولها وطر ، واستدار الحدج واخضر ، ثم يستشهد بهذا البيت :

تربع ليلى بالمضيـح فالحمـى   وتقتاظ من بطن العقيق السواقيا

وكأنه فهم ان (السواقيا) في البيت هي النواعير ، ومعروف ان العقيق لم تكن به ناعورة واحدة ولكن الساقية هي الجدول الصغيـر كما في كتب اللغة وقد قال المتنبي :

قواصد كافـور تـوارك غيـره   ومن ورد البحر استقل السواقيا ؟

فاين مكان الاستشهاد اذن ؟

هذه وامثالها هنات يشفع لها ما أحسن فيه السيد من اختيار ، ومهما تناوله الناقدون بالتحليل ، فان من آية فضله ان يصور شعوره في لغة عربية رائعة سبق بها زمان التحرر الادبي كما تسبق اضـواء الفجر شروق الصباح !

الفيوم ـ دار المعلمات   محمد رجب البيومي



محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان
المحاضر في كلية الاداب بالجامعة الاردنية

* * *

البلد .. الاخضر

كان لقاؤنا به في نادي خريجي الجامعة الاميركية في بيروت .. وقد هيأ لنا ذلك اللقاء الاستاذ المؤرخ الباحث الدكتور نقولا زيادة ، وقال لنا انه واحد من طلابه ، وانه يعتز به طالبا ، ويركن اليه صديقا .. وسماه لنا : الاستاذ محمد الحبيب عباس ..

وقال عنه : انه مختص بدراسة التاريخ ، وان اطروحته للدكتوراه انما هي عن تأثر النهضة الحضارية في تونس — وفي مختلف وجوهها — بالنهضة الحضارية الاوروبية ، وذلك منذ بداية عهد النهضة .

واستغرق الرجل في حديثه ، وافاض فيه شأن المؤرخ المطلع ، والباحث الخبير ، ولم يدع جانبا من جوانبه ، الا واوسعه تفصيلا وابانة ..

واصغينا الى حديثه اصغاء المتشوق المستمتع .. واستوعبنا كل ما فيه ، استيعاب من تناهت اليه الحكمة، فالتقطها حريصا عليها حين وجدها . وكانت ضالته المنشودة ، وطلبته التي بحث عنها واطال البحث .

والفيناها فرصة لا تعوض . ويحسن بنا ان لا نضيعها ، وانتقلنا بالسؤال من غابر تونس الى حاضرها ..

وانطلق يحدثنا عن تونس ..

تونس اليوم .. وبعد عهد الاستقلال .. ماذا في تونس من نهضة ثقافية ..

وجره ذلك الى الحديث عن جامعة تونس ، وما الذي حققته هذه الجامعة ، وعن الاجيال التي خرجتها جيلا بعد جيل ، فاذا هم قافلة عديدة هائلة ، لها بداية ، وما تزال يلاحق بعضها بعضا ، كأنها سيل دافق لا ينضب له معين ، ولا تكون له نهاية ابدا..

ثم اطال الحديث عن الرسالة التي حملها هؤلاء الخريجون ، وعن الاعباء التي انيطت بهم ، وعن المنجزات العظيمة التي حققوها في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات .. ثم كيف تم على ايديهم ، وعلى ايدي خريجي جامعة الزيتونة ، تعريب التعليم ، ثم تعريب كافة منشآت الدولة هناك ..

ودفق ذكر جامعة الزيتونة ، الى الحديث عن هذه الجامعة ، فذكر لنا انها كانت الصورة المشرقة للجامع الازهر في المغرب العربي ، وطيلة عصور الانحطاط كلها ، وانه كان ينبعث منها بصيص النور ، وبصيص الامل ، فيضيء الطريق بين ايدي المكافحين من اجل الحرية . طيلة عهود تلاحقت طويلا ، وتنوعت فيها ميادين الكفاح واساليبه .

وكيف اصبحت هذه الجامعة اليوم ، تسير مع المدى الذي يفرضه تطور القرن العشرين ، بكل ما فيه من مفاجآت العلم ، وجديد المخترعات ، فهي الان جامعة عصرية ، تقوم الى جانب جامعة تونس ، مستندة الى ركيزة من ماضيها العريق ، ومنطلقة الى هدف بعيد ، يدفعها اليه سيرها الحثيث في ركاب الحضارة ..

حدثنا بذلك وباكثر منه ، عن النهضة الثقافية ..

ثم حدثنا بعده : عن تطور العمران في الساحل والداخل، والمدن والدساكر ..عن تطور الصناعة ، وفي حدود الامكانات القائمة .. عن تطور الزراعة ، في السهل والجبل والصحراء .. وكنا نصغي اليه ، مأخوذين ببراعة وصفه ..

نصغي اليه : وهو يصف لنا السهول الدافقة بالخير ، والمائجة بذهب الحنطة ، والمكتسية بالخضرة الفاتنة ، يلاحق بعضها بعضا طيلة ايام العام .. وهو يصف لنا حدائق النارنج والليمون ، مثقلة بنتاجها ، معطرة الآفاق بعبير زهرها الخلاب .. وهو يصف لنا السفوح زاخرة بالكرمة ، غاصة باشجار الزيتون ، الذي تناهى صيته الى بعيد الآفاق ، وحملته السفن زيتا وحبا الى نائي الشطآن ، وسحيق الاوطان ..

وهو يصف لنا الجبال ، تكللها المصايف ، زاخرة بالنعيم ، وقد احاطت فيها الحدائق بالدور والقصور ، حافلة بالشجر والثمر والزهر ، تجري بينها الينابيع بالماء السلسبيل العذب .. وعجبت مما سمعت .. وقلت

لمحدثي: ولعلهم نعتوها من اجل ذلك بتونس الخضراء ؟!..

فقال وهو يبتسم : انهم نعتوها بذلك ، وانه لنعت لا يفيها حقها وان فيها الى جانب تلك الخضرة شيئا كثيرا اغفلوا ذكره ، واهملوا وصفه ، وغمطه حقه .. ان فيها روعة المساء .. وفتنة الاصيل بنسيمة العذب عند شاطىء البحر ..!! ان فيها السحر الخلاب ، والجمال الآسر ، والسرحة الشاعرية ، حين تشرف من ذروة الجبل – اي جبل – على السهل المنبسط بين يديك ..!

ان فيها طيبة الناس ، وخلقهم العربي الاصيل ، وحسن تلقيهم لك ، اذا احسوا انك غريب ، وانك اخ لهم في دين العروبة .. !! ذلك بعض ما فيها ، وهو قليل من كثير ، مما اغفلوا ذكره ، حين نعتوها بذلك ، ووقفوا عنـده ..

بهذا حدثني الاستاذ التونسي المؤرخ .. ذكرته في الامس ، حين سألني صديق : « ما معنى عيد الاستقلال التونسي ، الذي تحدثت عنه الصحف ، واقيم له حفل مشهود في فندق الاردن بعمان ..؟!» .

فقلت له : ان من بعض معانيه حديثا طويلا ، ليس فيه من السياسة شيء ، وهو من ثمرات ذلك الاستقلال .. وحدثته بحديثي ذاك ، الذي نسبته الى قائله ..

وارجو ان لا اكون قد اغفلت منه شيئا .. فهو جدير بان يروى كاملا .. وهو جدير بان يسرد غير منقوص.. فلعل فيه ما يدفع الراغبين في اعمار اوطانهم ، الى ان يعمروها ، وبذلك يجعلون من كل قطر من اقطار وطننا العربي الجميل (تونس الخضراء) .. وما اروع ان يفعلوا هـذا ..!!

علمتني الايام ..

كان اذا استهل حديثه في مجلس يبداه بقوله : «علمتني الايام» .. يقولها بعد ان يمهد بين يديها بفترة صمت قصيرة احيانا ، وطويلة احيانا اخرى . وبعد ان يتمهل في قولها ويتأنى ، كانما هو يبني حروفها واحدا فوق واحد ، وكانما هو يحرص على ان يكون هذا البناء محكما متماسكا لا يدع فيه نقصا يؤول به الى ان ينهار ويتداعـى ..

ورايتني اسجل عليه ذلك كله ، وفي مواقف كثيرة لا حصر لها .. اسجله في نصه .. واسجله في اسلوبه الذي كان يلقي به .. والذي كان لا يعتريه تحويل ، ولا يمسه تبديل ..!

وقلت في نفسي : ان الذي «علمته الايام» لا بد ان يكون عالما ، فمن علمته الايام لا ينسى ما تعلمه منها ، لانها تقرنه بحدث من احداثها ، او مشهد من مشاهدها ، يبقى اثرهما عالقا في الذهن ، مستقرا في سويداء القلب. ثم ان الذي يتوفر له مثل هذا العلم ، لا بـد ان يكون متصفا بصفات العلماء ، وابرز هذه الصفات الجميلة المحمودة ، هو التواضع الذي تضرب به الامثال حتى ليقول القائلون لمن يجمل تواضعه: «ذاك تواضع العلماء..»!

ذلك شأن من علمته الايام ، فافاد منا علما ينتفع به هو قبل ان ينفع به الاخرين ، ويضع نفسه في موضع من يبين لهم وجوه الراي..ولكني رايت صاحبي حين اردت ان اتبين امره .. رايته .. يطل على الاخرين اطلالة من تركز في يقينه ، انه خلق من طينة غير طينتهم ، فهم دونه لا يرتقون الى مرتبته .. ولا يصلون الى مستواه ..

ومن يوم ذاك .. صرت اذا سمعته يردد على نحو ما اسلفت آنفا : «علمتني الايام» .. صرت اقول بيني وبين نفسي : «كلا يا صاحبي ..انها لم تفعل ..!!

مجاهـد ..

في جزيرة ارواد .. وعلى مقربة من الشاطىء السوري .. لو قدر لك ان تجتاز ذلك المضيق الفاصل بين مدينة طرطوس وبين تلك الجزيرة ، ثم تهيأ لك ان تصعد الى القلعة الحصينة ، القائمة في وسط الجزيرة ، وتدخل الى السجن الرهيب ، الذي كان يحشر فيه المجاهدون الاحرار من شباب العرب ايام الحكم التركي المظلم ، والمجاهدون الاحرار من ابناء سوريا ولبنان ، ايام الاستعمار الفرنسي البغيض ..

لو قدر لك ان تزور جزيرة ارواد .. وتهيأ لك ان تصعد القلعة .. وتدخل سجنها الرهيب .. اذن .. لرأيت هنالك ما سوف تذكره بقية عمرك .. وانها لآثار اولئك المجاهدين الاحرار ..

فهذه زاوية : ابراهيم هنانو .. وذاك مقام : عبد الرحمن الشهبندر .. وحياله مجلس : نجيب الريس .. والى جواره مستند : فخري البارودي .. وهكذا .. وهكـذا ..

وتمضي تقرأ اسماء الابطال .. والشهداء .. والمجاهدين الاحرار .. ممن حفل تاريخنا الحديث بذكر بطولاتهم ، وسرد مواقفهم الرائعة ، وتعداد اعمالهم المجيدة ، في سبيل تحرير الوطن العربي من كل غاصب..

انه حرم مقدس المشاهد .. يملأ نفسك رهبة وجلالا .. ويعيد اليك من الذكريات ما يفيض به القلب اشجانا .. ولسوف تقرأ هناك :

يا ظلام السجن خيم   اننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل الا   فجر مجد يتسامى ..!

سوف تقرأ هذا النشيد .. وتقرأ الى جانبه اناشيد اخرى غيره ، مما كان ينظمه اولئك الاحرار في سجنهم ذاك ، ثم لا تلبث ان تهدر به اصواتهم ، فاذا هي تملأ جوانب السجن الواسع ، ويتسرب صداها الى اسماع الكثيرين من ابناء الجزيرة ، فاذا هم ينقلون تلك الاصداء، الى افواه الكثيرين ، الذين لا يلبثون ان يرددوها في

الحب الكبير

مقبل العيسى

أواه .. يا حبيبتي لو تعلمين
كم انني حزين ..
الدمع غمر ، والفؤاد مترع حنين
فقد بحثت عنك منذ حين
لاشتكي اليك حبي الدفين
ولهفتي الى اللقاء ..
الى الضياء من عينيك .. يا خمرية الجبين
لكن بحثي عنك طال ..
كالبحث عن معالم الطريق في الرمال
كالبحث عن طبيعة المحال

سالت عنك زهرة الغدير
لان فيك من أريجها عبير
لكنما صدى السؤال ..
يرتد دائما .. محال تلتقي بها محال

أواه .. يا سمية الهلال !!
يا سمحة الاخلاق .. والخصال
هذا الصدى كانه الحروق ..
كغصة مسمومة الاشواك في العروق
لنلتقي فانني أعيش في هموم
ألوب في متاهة كثيفة الغيوم
كسندباد كفه تمتد للنجوم ..

لنلتقي .. يا حبي الكبير
يا من غرست في جبيني الاباء
والكبرياء .. !!
لنلتقي فانني حزين
الدمع غمر ، والفؤاد مترع حنين

جدة ـ السعودية

مسالك بيروت ، وازقة دمشق ، ودربونات بغداد ، وحارات بيت المقدس ويافا ..وحيفا..وحلب.. وسواها وما اكثر سواها في جوانب هذا الوطن العربي الكبير ..

انها ذكريات عزيزة..تهيجها في نفسك وقفتك في سجن القلعة في ارواد ، اذ انت وقفتها يوما من ايام عمرك ..

ولقد كتب لي ان اقفها ذات يوم .. ورأيتني استعيد ذكرى هذه الوقفة ، وانا اسمع من المذياع نبأ وفاة المجاهد فخري البارودي ، وهو بقية اولئك النفر الابرار ، الذين عمروا ذلك السجن ذات يوم ، وهم يكتبون تاريخ جهادنا الحديث ، ويخطون صفحاته المشرقة ، بدمائهم الزكية الغالية ..

انه بقية اولئك المجاهدين .. ورفيق جهادهم المشرق كلما حزبت الامور ، وكلما تأزمت المواقف وكم كانت تحزب تلك الامور ..وكم كانت تتأزم تلك المواقف ..! ثم انه سجين ارواد معهم ..وما بقي في هذا السجن من آثار دليل على ذلك لا ينكر..

فرحم الله البارودي..لقد كانت حياته صفحة جهاد مشرف .. وقد طواها القدر في الامس القريب .. وهنيئا له بلقاء الاحبة الابرار من رفاق جهاده في عليين عند ربهم .. وحسن اولئك رفيقا ..!

عمان ـ الاردن

محمد سليم رشدان

لماذا لا ارحل عنك يا قريتي .؟

وحكاية «جبر» تكاد تنطبق علي ، وتكون لوحة قبري نسخة طبق الاصل عن لوحة قبره : (هنا يرقد جبر ، من بطن امه للقبر ، لم يذق طعم الراحة . .) لماذا ابقى فيك يا «ام النعمان» ، وقد مزقك كبرياء الناس وتعاليمهم ؟.. وحدي انا ، ونفر قليل من سكانك ، نعمل في الارض، منذ شروق الفجر حتى دبيب المغيب، فلا نلاقي الا التعب والعرق والدموع، وهزء سكانك الميامين !.. هؤلاء لا يتعبون ولا يشقون .. يأكلون لقمتهم على مهل.. مضمخة بالعسل .. يأتيهم المال من وراء البحار .. من المهاجر البعيدة .. ونحن وحدنا نحرث ونشقى ، وتكون لقمتنا صعبة المنال !.. ندفن الحبوب في صدور الارض.. نقامر بها ..ننتظر المواسم شهورا .. نشذب اشجارنا لتؤدي بنا الى سلالم السعادة ، فلا تنتصب السلالم الا في الفصول .. يطول انتظار القرش على ارضك يا « ام النعمان » ، في قلوب الفلاحين امثالي .. والحياة فيك اصبحت لا تطاق .. هالات من البهرجة والفطرسة تحيط ببيوتك ، وتظهر في ملابس نسائك ورجالك واطفالك. قليلون ممن يعملون في ارضك يقدرون ان يبقوا في هذه الحلقة ..

نحن وحيدون يا «ام النعمان».. وغدا تبقى ارضك وحيدة ايضا ، الا من المتبهرجين ، فلا يطل عليها الا من يستأجر من القرى المجاورة .. وصدقيني ان ترابك صار رخيصا.. كان اجدادنا لا يبيعونه الا اذا عجزوا عن فك مشنوق ، ايام كان الشنق ، لا يفتدى بعهد العثمانيين ، بغير المال .. اما اليوم ، فكل من يئس منك باعك ، واشترى بمالك لحما ، وخبزا ، ونبيذا ، وثيابا جديدة ، على الموضة .

لم يعد من قيمة للفلاح يا « ام النعمان» ، وولى العهد الذي كان يقال فيه « فلاح مكفي سلطان مخفي». قيمة الناس بما يملكون من رياش ، ومال وثياب . لم يعد للخفاء من مكان ولى عهد السلاطين .. واتى عهد السجاير الاجنبية ، والقبعات الاميركية ، والكرافاتات الايطالية ، والاحذية الالمانية ، والقمصان الحريرية ...

اريد ان ارحل عنك ، واترك اهلي امانة على ارضك ... اترك ابي، الشيخ الوقور يقاسي غربتي .. اترك امي العجوز تعاني من غياب وحيدها ما تعانيه من الوحدة .. الا انني سأوافيها بالمال ، كيفما كانت ظروفي .. سأعمل في المدينة كاتبا ..



قيمة الناس

بقلم نصرت توفيق خريش

مساعد كاتب .. مراسل مكتب .. لا يهم .. المهم ان اجد عملا شهريا يغنيني عن انتظار المواسم والشهور، شهادتي الابتدائية تخولني ان اشتغل براتب محترم .. فأثبت في وظيفتي وترتفع مع الايام اجرتي !..

ومع اول بوسطة هدرت في ساحة القرية ، مقلعة نحو بيروت ، كنت أزرع آمالي في اشداق المجهول... تاركا العنزة السوداء تودعني بحملقة من عينيها الواسعتين ، والثوران النشيطان يستريحان في الاسطبل، بانتظار «سوق الخميس» فيعرضهما والدي للبيع .. ويعرض معهما حمارنا الصبور ، بأرخص الاثمان .



وكان لي خالة تسكن حيا ارستقراطيا مع زوجها في رأس بيروت ، فنزلت عندها ، ريثما اتيسر باستئجار غرفة تتناسب مع حالتي .

عندك هنا ، السعادة ، يا خالتي .. الكهرباء .. الماء .. التلفون الاوتوماتيكي ..البراد .. التلفزيون .. النزهات البحرية .. الافلام السينمائية ..

كم يسعد الانسان عندكم في المدينة ، تستحمون بالماء الساخن والبارد ساعة تشاؤون .. ان المرء هنا يشعر بضآلة القرية .. هنا يدفن الانسان احزانه .. **اريد ان** ادفن متاعبي !..

كم من فارق بين حياة خالتي هذه ابنة المدينة ، وحياة امي تلك ، ابنة القرية ؟.. مسكينات بنات القرية ، لم يهنأ بينهن الا من ذهب اولادها الى المهجر او المدينة .. لا يأتي المال الا من المهجر والمدينة . مواسم الارض لاتعطي المال .

عجيب سر هذا المال .. لا يسعد الا من امتلأت جيوبه منه .. ومن كانت جيوبه فارغة فقد احتواه ظلام الحياة ..

وكان زوج خالتي يحب فيبساطتي، على حد قوله ، وعباراتي القروية ، وكلامي المنسق ، واخلاقي التي لم تطأها بعد افكار المدينة .. وقد ابدى لي استعداده لوظيفة انزل فيبحرها، فاعبر من شاطىء الافلاس ، الى شاطىء المال .. ولم يكن من مجال امامه ، وانا حامل الشهادة الابتدائية، الا ان يوظفني في شركة للطيران ، مساعد كاتب ، بمعاش جيد .

شعرت وانا اتسلم عملي ، بزهو ولا اكبر . لان شهادتي التي كان يصورها لي اهل القرية ، بانها لا توازي شيئا ، وبان حامليها من ماسحي الاحذية يلصقونها على «علب البويا» صارت هذه الشهادة شيئا عملاقا في يدي . ترفع الامال في افق حياتي ، ليس همسا ، بل جهرا

وحقيقة ، سأكتب عنها للوالدين في القرية ، مبشرا وسأتكل على معاون «البوسطة» ان ينقل رسالتي اليهما، وان يقرأها لهما على مسمع من الجيران والجارات ...

وسيعرف الفتيان في القرية ان الشهادة الابتدائية شعاع ذهبي ، يفتح لها عامل المصعد الباب ، ويناديني سائق التاكسي من اجلها : الى اين يا استاذ ؟ طالع يا استاذ ؟

واذا لم يصدقوا فسأدعو غير المصدق منهم الى عندي ، وسأدخله معي الى المحلات التجارية ، وسأجعله يسمع التاجر ، اي تاجر ، كيف يرحب بي : تفضل استاذ .. تكرم عيونك يا استاذ .. بلا مصاري للاستاذ !..

واستأجرت دارا تتألف من غرفتين ومطبخ، اجرتها الشهرية ربع المعاش، كتر خير الله وشكرا للخالة وزوجها سأرد لهما المعروف في المستقبل ان شاء الله ..

جيراني في البناية طيبون ، وسأكون معهم اطيب ، اذا دعى الامر . صاحب الدكان يحييني دائما ويقول: امر اي خدمة يا استاذ .. وعندما اشتري من دكانه يقول : اذا ما في معك خليها لآخر الشهر يا استاذ..

وتوالى شهران .. ثم ثلاثة..ثم خمسة..وانا امشي في الشركة على زعمي مثل الساعة . وكاد لا يعكر راحتي الا فظاظة هذا الكاتب الذي عينوني مساعدا له..يا الله ، كيف ينقلب الناس؟ ماذا دهاك يا حصرة الكاتب ؟!.. ما الذي بدلك ؟ أمن اجل غياب ساعتين تعلم المدير ؟!. ما قيمة الساعتين في حساب الشركة؟ هل انكسرت الشركة ؟ هل اعلنت افلاسها من اجل غيابي ؟ هل علقوا لك وساما ؟ يا الله ما اضيق الناس؟

ودعاني المدير اليه .

ـ اسمع يا «حيدر» . نحن اكراما لزوج خالتك ، عيناك في الشركة ، مع انك لا تحمل من الكفاءات العلمية الا الشهادة الابتدائية . فصرت تعمل عنترا على الكاتب المسؤول عنك . مرة تتأخر عن العمل . ومرة تتمرد على أوامره . و...و..

فرحت الملم افكاري ..اجمعها .. اصوغ من كلماتي الفارة اعذارا! .

ـ الكاتب زادها علي يا سيدي .

ـ وانت زدتها على الكاتب ، وعلى الشركة ،يا خواجه. روس كبيرة ما بدنا ، مضيعة وقت ما بدنا . انت مفصول عن العمل اعتبارا من صباح غد .

ونزلت من مكتب الشركة مهرولا .. مهزوما .. لم استعمل هذه المرة المصعد الكهربائي . لقد كنت اتخاذل على سلم الدرج .. مشيا على اقدامي . تنتصب امامي البطالة.. الحقد .. البحث الجديد عن عمل جديد .

وكرت شهور سود .. ديون تستحق لصاحب الدكان .. ثلاثة شهور غير مدفوعة عن اجرة الدار.. وجبات طعام حقيرة .. شبع قلبل .. ضياع.. اضمحلال .. ضلال.. حياة ربما تنتهي بفاجعة .

كل الوعود التي كنت انتظرها للعمل ذهبت في خبر كان ..

ـ آسف يا استاذ .

وعندما يشفق الله ينزل السعد من السماء ...

ربحت الجائزة الكبرى في اليانصيب .

تصدرت صورتي الصحف .

انتفخت ... الا انني لم اطق من الغرور هذه المرة .

قبضت المبلغ وركبت احقر سيارة متوجهة الى «ام النعمان»... لاشبع معدتي . لاستغفر ابي وامي .

لاعتذر الى ارضي التي انكرتها وحقدت عليها ... انها ستحتاج الى الكثير من العناية والمال ... لن اضن عليها بشيء .

سأعود انتسب الى ترابها .. وكرومها .. وبساتينها.. وصخورها .. وسأعرف هذه المرة كيف احب التراب وأبني لي بيتا على التل .

عين ابل ـ لبنان نصرت خريش

ذكريات بعيدة

كان يلقاها كل جمعة عند شط البحر في بيروت ، ثم افترقا هي الى شط العرب وهو الى بلاده ، وجاءت الجمعة واشتد به الحنين

•

هذه «الجمعة» كانت موعدا — للقانا .. يا له من موعد !
أترى تذكره يا ملهمي — أم مشى البين على العهدالندي؟
لا تسلني كيف أحيا بعده — قد وهبت الحب يومي وغدي
بعدت دارك الا من جوى — في فؤادي مائر متقد !
انت في «الشط» بعيد.. وأنا — في الصحاري هائم يا كبدي
تتراءى لي خيالا فاتنا — فاحييك .. وتمتد يدي !
واناجيك .. وما تسمعني — واناغيك ... وما من أحد !
ظمئت روحي ، فهلا رشفة — من رحيق ، من حديث غرد

الخرطوم حسن نجيله



ديوان عدي بن زيد العبادي

ديوان عدي بن زيد العبادي ـ حققه وجمعه محمد جبار المعيبد ـ ٣٢٩ صفحة ـ شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ـ سلسلة كتب التراث ٢ ، مديرية الثقافة العامة بوزارة الارشاد ببغداد

محمد جبار ... أدركته ـ ان صح التعبير ـ طالبا مثل أي طالب في كلية الآداب ، او هكذا كان يبدو ، لا يتميز بشيء اللهم الا ان يكون صموتا ، تظنه ـ لصمته ـ بعيدا عنك.وماذا يهمك منه ما دام كذلك، وقد كفاك شره ! لا ، ولم؟ فقد يكون احسن مما هو ، ولا بد من ان تقف على حقيقته فقد تكون له قابلية تجهلها ويجهلها هو . من يدري ؟ وما قيمة الاستاذ ان لم ينفذ الى قرارة تلاميذه ، فيسبر غورهم ، ما قيمته ان لم يكتشف ، وان لم يستثر الطاقة الكامنة !

لقد بدأ الصامت ينطق بالكلمة والكلمتين ، وفي حروفه الحيية ما يدل على ابعد من حدودها ، وبدأ الهادىء يتحرك ، وفي مجالي حركته مخايل بركة.انه لا يتكلم مختارا ، واذا فلتسأله . ولا يتحرك طواعية ، واذا فلتضغط عليه .

وتوزع عنوانات البحوث ، ويتلقى نصيبه دون ان تعلم مكان الرضى او السخط من نفسه.وتمر ايام واسابيع فاذا بك ازاء بحث جيد ، فيه ما للبحث المحترم من مزايا : صبر، مادة، تنظيم، مناقشة، ولصاحبه ما للباحث المحقق من شرائط ، بما في ذلك الاستماع للنصح والاستفادة من الملاحظة ، والقبول للنقد .

ثم تقدم ... انه من هؤلاء الطلبة القلائل الذين يتقدمون «متأخرا» وكانهم في عالم الدرس والبحث «النابغون» في الشعر والفن. أشهد انه تقدم كثيرا في مدة قصيرة ، واشهد انه خرج من دائرة المتوسط الى دائـرة التفـوق .

ويتخرج في كلية الآداب ، ويبتعد عن بغداد ، وقد تخرج قبله وبعده كثيرون ، ولكنه من هؤلاء القلة الذين تختلف اخبارهم عن اخبار الكثرة ، كما وكيفا.لقد «عين» مدرسا في احدى متوسطات البصرة ، ولكنه يقرأ ويتابع ويرتاد المكتبات الخاصة والعامة ، ويمضي أطيب اوقاته مع الكتب ـ وأي كتب ! الصفر والمخطوطة والثقيلة ، يألفها ويانس بها ويحبهـا .

وتسمع انه جمع ، وأنه بدأ يحقق ، ثم تقرأ له ـ هنا وهناك ـ تعليقا على كتاب صدر فيزداد ظنك حسنا ، ورأيك توطدا ، واملك اضاءة.

وتسير الايام هادئة ... ثم يطرق الباب ، فماذا وراءك ايهـا الطارق ؟ وما ذاك بيمينك يا محمد ؟ ـ «ديوان عدي...»

اذا ، لقد اصبح لعدي بن زيد العبادي ديوان، بعد ان يئس الباحثون، وكان يجب ان يكون له منذ امد بعيد ، لانه ظاهرة خاصة في أدبنا الجاهلي : لحياته ولشعره .لحياته..في السفارة بين الروم والفرس ومكانته لدى الاكاسرة و «المناذرة» حتى لقد كاد ان يكون ملكا، وبلغ المنزلة التي يستطيع معها ان ينصب هذا ويحول دون ذاك .وهكذا كانت يده طولى في تنصيب النعمان.وكان النعمان «اضعف» من يعرف الشاعر ، فخضع لاعدائه ووشاياتهم وافترائهم ، فاستقدمه من لـدن كسرى «مشتاقا» والقاه في غيابة «الصنين» .

وقد طال السجن ، وعدي ينظم القصيدة تلو القصيدة شاكيا ، آملا ، مدافعا ..دون جدوى ، وبماذا يستطيع انسان ان يتقرب من انسان ان لم ينفعه فضله واخلاصه وبراءته ! ما كان اقساها تجربة ! وليصبها في بيت سار مسير المثل وظل طريا على كر القرون :

لو بغير المـاء حلقي شرق
كنت كالغصان بالماء اعتصاري

مسكين ! كان قبل اليوم كبيرا ، وكان يطمح الى الخلود ، ويتمنى ويذهب ويشرب.. ويحسب انه ادى خدمة جليلة ، اما اليوم فقد رأى الحقيقة مـرة ـ شديدة المـرارة .

ان حياة عدي قصة مكتملة الاجزاء ـ قصة ماساة .

ولشعر عدي بن زيد اهمية خاصة شكلا ومضمونا ، وانك قـد تستضعفه وقد تراه على غير ما ترى شعر الفحول من امثـال امـرىء القيس ولبيد ، ولكنه حاز اعتراف الاقدمين ، ونال اعجاب عدة منهم ووضعه محمد بن سلام في الطبقة الرابعة وقال : «سكن الحيرة .. فلان لسانه وسهل منطقه» وكان لهذا القول صدى قوي لدى النقـد الحديث. وراه آخرون سابقا على الاعشى ، وسلفـا طبيعيـا لابـي العتاهية ، وربما كان سلفا ـ بوجه اخر ـ للعباس بن الاحنف وابن الرومـي ..

ولئن تأخر صدور ديوان عدي بن زيد ، لقد صدر على خير مـا يمكن ان يصدر ديوان ، وعلى المنهج الذي يصلح معه ان يكون اساسـا متينا لدراسة علمية .لقد بذل «المعيبد» جهدا نادرا هو أساس فـي صناعة المحقق ، فمن لا يملكه ويملك الصفات الاخرى من دقة وأناة وذكـاء...فليس له فيها مكان.

واشهد ثانية او ثالثة ان محمد جبار لم يدرس هذا ، او كل هذا في كلية الآداب ، ولكنه تعلمه بادامة النظر في الكتب المحققة ، وتعلمه بفكر يستوعب ما يخصه ويلتقط ما ينفعه ، ثم «يتفنن» ويزيد ـ ويبدع.

الديوان في اصله المخطوط اثنتان وعشرون صفحة ، ولكنه بقي مجهولا طول هذا الزمن ، على كثرة ما نشر الناشرون وحقق المحققون ، وعلى الرغم من مثابرة الاب لويس شيخو واضرابه في الشرق والغرب.انه كان قابعا في البصرة ، بل انه صفحات اخيرة من كتاب مخطوط يحمل اسم «جمهرة شعراء العرب في الجاهلية ..» وناسخ المخطوطة «جاهل باللغة ، فملأ النسخة تحريفا وتصحيفا .».

بقي الديوان فيمكمنه ستين عاما ينتظر اليد العاملة، وها هي ذي تمتد اليه يسبقها قلب لهوف ويتبعها عقل عقول ، ويصحبها خلق المـرء الشاعر بالمسؤولية ، المجل للتراث ، الحريص على سمعته ، البعيد عن الركض وراء الشهرة الزائفة .

تمتد فاذا الـ (٢٢) صفحة (٣٢٩) صفحة . فكيف كان ذلك ؟ كان في الاستهانة بالعمر من اجل التجويد في الصناعة ، كان بأن وقف محمد جبار عند كل بيت ولدى كل حرف ، يفحص ويدرس ثم يقابـل ويقارن بعد ان يرجع من المظان الى ما يمر ـ او لا يمر ـ ببـال ، فيثبت الفوارق ويشرح الصعب من الكلمات ويخرج الابيات .

ولم ينته صبر المحقق بانتهاء «الديوان» ، لان الـ ٢٢ صفحة التي دعيت ديوانا ، ليست ـ على ما يبدو ـ ديوانا كاملا ، فقد ورد فـي هذا الكتاب او ذاك مما لم يرد فيه ، ما يمكن ان يساوي نصف الديوان العتيد ، واذا ، فليشمر محمد جبار ، وليخض غمار هذه الكتـب فيذيل على الديوان بما هو صريح النسب .

ثم عرج على الابيات التي تنسب مرة لعدي ومرة لغيره فجد في جمعها واثبتها في ذيل آخر مبينا ما ذكرته المصادر بصددها .

ثم الفهارس من كل نوع ، من كل ما يدل على الجد في العمل ،

ويسهل المهمة على الباحث والقارىء .

تهانينا يا محمد ، يا استاذ محمد.

كان عملك باكورة ، ولكنه ولد ناضجا ، اتسم بتؤدة الشيوخ وحماسة الشباب ، وبشر بما سيليه من انتاج جليل ننتظره لتسد به نقصا كبيرا ولتحتل به مكانة يصعب ان يحتلها كل من يرومها ، فتعمل على انقاذ هذا التراث الكريم من عبث العابثين وتخليصه من ايدي ذوي الكسب الحرام .

انك اذ حققت «ديوان عدي..» وضعت نفسك موضع المسؤول ورضيت لها الاعباء التي لا تنتهي. ولا شك في انك ستواصل البحث وتشفع التحقيق بالتحقيق ،ولا ريب ان امامك اكثر من ديوان : عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزه ، امية بن ابي الصلت ... وما الى ذلك مما نشر او لم ينشر ، وان امامك اكثر من مطمح ، فليس معقولا ان تقف حيث وقفت بك الظروف ..

وهذه تحية... تتلوها تحايا .

جامعة الرياض علي جواد الطاهر

•

الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا

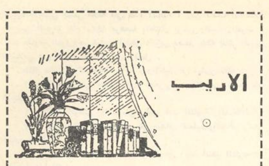
تاليف انور الجندي ـ (؟) صفحة ـ مطبعة (؟)

المغرب العربي ، هذا الجزء الهام من العالم العربي ، ما يزال مجهولا عند الكثيرين ، وما تزال الدراسات عنه محدودة او منحصرة في آفاق ضيقة.وقد كان الغربيون يهتمون بالدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهم المغرب العربي ، ولكن هذه الدراسات كانت موجهة ضد شعوب هذه البلاد من جهة ، وكانت تهم الجاليات الاستعمارية بخاصة ، فلما استقل المغرب العربي واسترجع كيانه اخذت هذه الدراسات تقل شيئا فشيئا ، دون ان تخلفها دراسات من نوع جديد يقوم بها العرب من سكان البلاد انفسهم او من اقطار اخرى من العالم العربي .

وهذه الدراسة التي اضطلع بها الاستاذ الصديق انور الجندي تعتبر من بين الدراسات الجادة الوافية لجانب مهم من حياة المغرب العربي هو جانب الفكر والثقافة المعاصرة . وقد شغل الاستاذ انور نفسه بالمغرب العربي دون ان تتاح له الفرصة لزيارته ، ولكنه استطاع ان يلم الماما كبيرا بعديد من الجزئيات والكليات اعطى من خلالها صورة صادقة عن المخاض الفكري والثقافي الذي مهد للثورة ضد الاستعمار ، وعن المخاض الفكري الحالي الذي يمهد لثورة البناء .

اهتدى الاستاذ انور الجندي الى ما بين اقطار المغرب العربي من صلات تجاوزت المجال السياسي الى المجال الحضاري والفكري ، والى الاصول الحقيقية العامة للانبعاث الوطني ، التي عملت على اعادة التاريخ المشترك فجعلت من ظاهرات الحياة الجديدة ظاهرات مشتركة في السير بالبلاد الى نهضتها .وهكذا نرى ان حركات اليقظة والنهضة ـ وهي القسم الاول من الكتاب ـ حركات متشابهة سواء ظهرت في السنوسية الليبية او في الاصلاحية التونسية او في السلفية المغربية والجزائرية . كما ربط التاريخ مصير هذه البلاد منذ العصور الاولى ، وربط مصيرها في عهود ازدهارها وفي عهود انحدارها ، ربط مصيرها وهي تكافح للتخلص من الانحدار الذي وصلت اليه على يد استعمار واحد متشابه ، وتكافح بوسائل متشابهة وبتفكير متحد ، وفي مستوى متقارب ، وبشخصيات متجانسة في العقيدة والفكر والاتجاه ، وتصوير هذه المرحلة من جانبها الفكري هو موضوع هذا الكتاب الضخم .

وقد اجمل المؤلف موضوع الكتاب في هذه الفقرات : « فاذا جاء



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ Tel : Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

النفوذ الاجنبي ينشر ظلامه على هذه المنطقة ، ومن بعدها الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ مرهصا باحتلال تونس وليبيا والمغرب ، كانت مقاومة الغزو العسكري والثقافي الغربي مصدر يقظة للفكر العربي الاسلامي على قاعدة التحدي ورد الفعل .

هناك بدأت حركة اليقظة والبعث والاحياء في ميادين ثلاثة :

١ ـ التحدي في مجال الدين وتحريره من الجمود وفتح باب الاجتهاد .

٢ ـ العمل الوطني والسياسي وظهور ادب المقاومة والصحافة.

٣ ـ التطور الثقافي والفكري في ميدان التعليم والثقافة وكتابة التاريخ .

يمكن ان نقول ان تحليل هذه المراحل من وجهة النظر الفكرية هو موضوع هذا الكتاب الضخم.

حلل المؤلف في القسم الاول من الكتاب الحركة السنوسية في ليبيا والحركة الاصلاحية السياسية والاجتماعية في تونس ، والحركة السلفية وما انبثق عنها من حركة سياسية وتعليمية في المغرب والجزائر . وارخ لنماذج من الرجال الذين قاموا بهذه الحركات من خلال افكارهم لا من خلال ادوار حياتهم فحسب .

وفي القسم الثاني تناول القضايا الوطنية في الاقطار الاربعة من خلال المواقف الحاسمة في تاريخ الحركة الوطنية : مقاومة الاستعمار في فكرته لخلق صراع مصطنع بين العرب والبربر في الجزائر والمغرب، قضية التجنيس في تونس ،قضية الادماج في الجزائر . وقد درس المؤلف هذه الموضوعات من جانبها الفكري والتاريخي لا من جانب تاريخ ادوار المقاومة فيها فحسب ، ولذلك نجد عنده فصلا عن عروبة البربر وفصلا عن وحدة المغرب العربي وفصلا مهما عن التقاء المشرق والمغرب، في قضايا التحرر الفكري عموما ، والقضايا التي اهتم بها في هذا القسم من الكتاب خصوصا .ويختم القسم بنماذج من المكافحين المغاربة في هذا الميدان .

ولعل القسم الثالث الصق موضوعات الكتاب بعنوانه فهو يتحدث عن مقومات الثقافة والفكر من جانبها الكفاحي كذلك .يبدأ الاستاذ انور مدخل البحث بهذه العبارة : «ان الفكر المغربي قد واجه معركة كبرى في مجال الاحتفاظ باصوله وقيمه ، في مجالات التعليم والثقافة والصحافة والادب والتاريخ واللغة العربية » وهذه هي المعركة الفكرية التي خصها المؤلف بهذا البحث القيم . وكعادة المؤلف لا يستعرض الاحداث دون ان يعود الى اصولها الاولى ، فكتب وهو يتحدث عن معركة الثقافة فصلا عن جامعتي الزيتونة والقرويين .ولم يفرق في التاريخ ، وانما انتقل سريعا الى كفاح هاتين الجامعتين في معركة التعريب والمحافظة على القيم العربية والاسلامية ، والى كفاحهما كذلك في المجال الوطني . وفي مجال الثقافة كتب فصولا هامة عن الغزو الفكري ومقاومته ، وعن مظاهر الثقافة العربية الاسلامية والمحافظة عليها كما تحدث عن الصحافة كوسيلة فكرية لنهضة المغرب العربي .

وفي كل مجال من هذه المجالات كان للمؤلف لقاءات مع عديد من الشخصيات اللامعة يؤرخ لها من خلال افكارها وكتاباتها لا من خلال الحياة الخاصة .

وقد اخذت الحركة الادبية حظا طيبا من الكتاب ، وخاصة في نطاقها الكفاحي كما كان لادب المرأة وللدراسات الادبية والتاريخية حظها هي الاخرى .

هذا النطاق الواسع الذي امتد اليه الكتاب تجمعه هذه الفقرة التي تلخص البحث : «نجد صورة واضحة قوية ممتدة من صور المقاومة التي لم تستسلم خلال قرابة قرن من الزمن على نحو متصل قوامه حركات فكرية ممتدة في الاقطار الاربعة ، دعامتها جامعتا القرويين والزيتونة ، وعناصرها «الكلمة» في عنصريها النثر والنظم ، وفي مجال التعليم والصحافة في الدفاع عن الاسلام واللغة العربية والحرية والتراث المغربي وتاكيد الشخصية العربية .»

ولست ازعم اني لخصت موضوعات الكتاب ، ولكني حاولت ان اعطي صورة عن موضوعاته لالفت النظر الى اهميته ، ولكني الى جانب ذلك لا ازعم ان اهمية الكتاب تظهر في هذه الصورة ، فقد بذل المؤلف فيه جهدا كبيرا ورجع الى مئات المراجع التي لا تتوفر عادة للذين يعيشون خارج المغرب العربي ، فقد قرأ مئات الصحف والكتب مستفيدا وملخصا وناقلا ومستدلا ، واتصل بعشرات الرجال ، وكاتب عددا كبيرا من شخصيات المغرب العربي ، كل ذلك ليدرس موضوعا بكرا كهذا الموضوع الواسع .

واستطيع ان اقول ان الاستاذ انور الجندي تمكن من تصوير هذه المرحلة من تاريخ المغرب العربي في جانبها الفكري تصويرا علميا دقيقا فتح بذلك كما يقول هو في مقدمته الاطار الذي يصلح لكتابة موسوعة كاملة عن الفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي .

لا املك الا ان اعلن اعجابي بهذا الكتاب لشيئين اثنين :

اولهما ان المؤلف اهتدى الى الطابع الذي يطبع الفكر العربي في المغرب العربي الذي يمتزج بالفكر العربي الاسلامي في المشرق ، ولكنه مع ذلك يتميز بطابع خاص ما يزال هو قوام كفاحه التحرري : السياسي منه والعقائدي والفكري .

وثانيهما ان مثل هذه الموضوعات كان يتعاطاها الاجانب : مستشرقون وغير مستشرقين ، ويكتبون عنها بروح ـ ان اتسم بشكلية البحث العلمي ـ فهو في غالبه يتسم بعدم فهم العقلية المغربية احيانا ، وبعدم الانصاف وبالنقمة والتشويه احيانا اخرى، فاذا ما تصدى هذا الباحث العربي لدراسة المعركة الفكرية والثقافية بروح الباحث المنصف المدرك للعقلية العربية الاسلامية المقدر لكفاح ابطال هذه المعركة فان ذلك سيكون فتحا جديدا في ميدان التعريف بمرحلة فكرية هامة لجزء هام من بلاد العروبة والاسلام .

وكل ما ارجوه ان ينال هذا الكتاب ما يستحقه من الباحثين والقراء لا في المغرب العربي فحسب ، ولكن في المشرق العربي، فرسالته في المشرق ربما كانت اهم من رسالته في المغرب لانه سيفتح عيونا كثيرة على جزء من العالم العربي ما يزال مجهولا الى حد بعيد في المشرق العربي وخاصة من هذا الجانب الكفاحي الذي خاضه وما يزال يخوضه لاقامة فكر عربي سليم في وجه تيار خطير من تيارات التغريب والفرنسة والتحويل .

اهنىء الصديق انور الجندي ، وارجو له مزيدا من التوفيق في ابحاثه المقبلة عن المغرب العربي.

الرباط ـ المغرب

عبدالكريم غلاب
رئيس تحرير جريدة العلم
نقيب الصحافة

●

الغريبـــــة

مجموعة قصص ـ تأليف السيدة سلمى الحفار الكزبري ـ (؟) صفحة ـ منشورات مكتبة اطلس بدمشق ـ مطبعة (؟)

عرفت المكتبة العربية آثار السيدة سلمى العديدة ، وعرفها القراء ، قاصة بارعة ، في اسلوبها اطلاقة الربيع ، وفي جملها حلاوة التركيب، وفي الفاظها حسن الاختيار . تقرأ لها فتحس نعومة الانوثة ، تنساب بين السطور ، على ما تحلى به اسلوبها من فصحى تجفو العامية ، وجزالة تبتعد عن الاسفاف.

ولقد اهتمت السيدة سلمى منذ باكورة آثارها بالحياة الاجتماعية

في بلاد الشام ، فاقبلت عليها تصفها من خلال القصص الجذاب . وكثيرا ما اودعت هذا التصوير الصادق للتاريخ الاجتماعي بعض المواقف العاطفية ، لتنشط القارىء ، ولتبعث فيه الرغبة على المثابرة ، ولتنشر امامه ايضا بعض صور النفس الانسانية في بعض حالاتها المألوفة . فالعاطفة حلية القصة على الاعم الاغلب،وزينتها ، ومبعث بهائها وجمالها.

الا ان مجموعة قصصها الجديدة ، التي سمتها «الغريبة» قد جاءت شيئا آخر .انها اثر من آثار رحلاتها الطويلة ، وطوافها في الآفاق . فلقد عاشت المؤلفة الفاضلة فترة في الارجنتين ، فاتقنت الاسبانية . ثم عاشت حقبة اخرى في اسبانية، فاذا هي تحاضر بهذه اللغة الموسيقية ، وتختار لمحاضرتها موضوع «المرأة العربية في القديم وفي الحديث». ولم يكن ممكنا ان تعيش كاتبة اديبة موهوبة في جو ما زالت تصله بالعروبة وشائج ، وان شاخت ، الا انها لا تنقصها الفتنة ، ولا تغيب عن نظر الرجل العادي فما بالك بالفطن الحاذق؟ وما ذلك الا لعمق جذورها ، ورسوخ اصولها .

لقد افادت المؤلفة الفاضلة من عيشها بين الارجنتينيين والاسبانيين، فنقلت لنا في مجموعتها الجديدة صورا عديدة عن عاداتهم وتقاليدهم ، وعن افراحهم واحزانهم ، وعن طرائق عيشهم ، وعن لهوهم وجدهم . فجاء قصصها صورا في الظاهر لحياة قوم من الناس ، وقد يكون في بعضه كذلك ، ولكنه في جملته صور من النفس الانسانية في كل قطر ومصر ، وفي كل عصر ودهر .

على ان المجموعة لم تكن كلها اثرا من آثار الرحلة ، بل وجدت فيها قصص اخرى ، لا تزيد عن الثلاث ، قد خصتها المؤلفة بالمجتمع الشامي الذي ولدت فيه واحبته. ففي قصتها «ام البنات» حاولت الكاتبة الفاضلة ان تشير الى حظ البنات في مجتمعنا القديم ، وخرجت من دراستها الاجتماعية الى نتيجة افرغت فيها كل ما رزقت من خفة الظل، وحلاوة البيان ، فقررت بأن الرجل مسئول عن انجاب البنات وحده ، وان المرأة التي لم ترزق ذكرا فالذنب في ذلك يعود على زوجها لا عليها.

واذا قرأت قصتها الثانية «العمة فريدة» بلغ بك العجب مبلغه من هذه السيدة التي تتقن اربع لغات ، وتعتبر في طليعة الصف الاول من المثقفات في شرقنا العربي ، لانها رأت ان المرأة «كانت تنعم بالجهل» في القرن الماضي ، وان «سعادتها تضاءلت في عصر الذرة والاقمار» . ولست ازعم ان رأيها هذا خاطىء ، لان قاعدة النسبية تدخل في ميزان الحكم. والمؤلفة الفاضلة نفسها تقول : «فالجمال ما زال نسبيا في العالم ، والثقافة ايضا ، والسعادة بصورة خاصة». واذا كان هذا من النظريات التي يختلف فيها الناس ، فان مما يتفقون عليه ان المؤلفة قد اجادت ايما اجادة في تصوير البيت الدمشقي في هذه القصة ،فجلته امامك بكل الوانه وبكل ما فيه ومن فيه .

اما ثالثة هذه القصص فهي «ابن الرئيس» التي صورت فيها ترف بعض ابناء الرؤساء ، وبذخهم ، ثم انحدارهم الى الاحتيال والجريمة.

واذا استثنيت فصلا رابعا ، سمته «بينهما» ، اجرت فيه حوارا بين العقل والقلب ، وردت فيه كل فضائل العقل الى القلب بل الى الحب .وهو نوع من الحوار الفلسفي الجميل ، الذي لا يرهق الفكر ، ولا يجهد الذهن. واذا استثنيت كذلك قصة اخيرة روسية ، وضعتها او ترجمتها في رسائل ، فانك لن تجد في اربع عشرة قصة الا جو اسبانية والارجنتين ، سواء في ذلك الاصيل والدخيل واعني ما كان من نسج حياة القوم انفسهم ، او ما كان من نسج حياة المغتربين الطارئين عليهم .

ففي قصة «الهدية» ترشدك المؤلفة الى اثر العينين الساحرتين وانهما حافز للتفوق ، وتعمم حكمها وتقضي بحق للمرأة في اثرها البارز في كل شيء .

وترى في «العاشقة الصغيرة» اثر الآباء على البنات .ومن عرف تعلق الاديبة الفنانة بأبيها الاستاذ لطفي الحفار ، عرف لماذا ارتفعت في هذه القصة عن غيرها من القصص ، من حيث المبنى والمعنى .

وعرف الاسبان كما عرف الارجنتينيون «مصارعة الثيران» ، فاذا ما مررت على قصتها «لعينيك يا دولوريس» قرأت صفحات ممتعات في وصف هذه المصارعة ، وفي رد غرام القوم بها الى عوامل المروءة والشجاعة والشرف .

اما «العودة» فانها قصة عميقة التأثير ، لانها قصة حزينة ، تصور آلام الاغتراب ، وآثاره على الحياة العائلية .

واقرأ بصورة خاصة قصة «الغريبة» لترى فيها كيف وفقت المؤلفة الى ما يسميه الفرنسيون «الصورة» Portrait . لقد رسمت الغريبة في لوحة كاملة ، حتى كأنك تراها . فاذا ما مضيت في القراءة انفت من تنكر الازواج لشريكات حياتهم ، لا سيما في حالات المرض ، الذي يعقبه الموت.واكبر ظني ان القصة واقعية ، لان المؤلفة كانت تسكب نجيع قلبها على الصفحات ، بكثير من التأثر والتأثير .

وحاولت المؤلفة ، الفاضلة ان تصف لنا في قصة « السنيورة ابيض» العزالق التي تتعرض لها المرأة الحسناء اذا كان زوجها موظفا صغيرا .وكيف ينبغي ان تعصم نفسها من الزلل .

كذلك فان «بطاقة البريد» قصة توضح لك كيف تتطور حياة الانسان بحادثة صغيرة ، فاذا هي تولي وجهها شطر المشرق ، بعد ان كانت شطر المغرب .

وحسبي هذه النماذج من الكتاب . اشرت اليها ، وانا اعلم انني لم اوفها حقها من البحث والدرس والتحليل ولكني نعمت بقراءة الكتاب ليلة ، فأحببت ان ينعم القراء معي بقراءته ايضا . ففي الكتاب محاسن اخرى جديرة بالتنويه ، اشير اليها ولا اذكرها ، لاترك للقارىء لذة اكتشافها ، ومتعة قراءتها .

واذا كان التلخيص لا يغني عن الاصل ، هذا اذا لم يشوهه في بعض الاحيان ، فحسبي انني لا ارجو من هذه الكلمة الموجزة اكثر من تشجيع القارىء الكريم على معرفة ما في الكتاب ، ولعله يجد فيه اكثر مما وجدت ، وخيرا مما وجدت .

الرياض **ظافر القاسمي**

●

ديوان الحمداني

للشاعر الدكتور هادي الحمداني ـ (؟) صفحة ـ مطبعة (؟)

صاحب هذا الديوان مثال حسن ونموذج محبب للنفس العصامية الشديدة الطموح ، فهو اليوم مدرس جامعي بعد ان كان في امس القريب معلما في المدارس الابتدائية ، وطموحه على هذا لم يكن على حساب غيره او من وراء انصرافه عن الاسهام في عملية التغيير للواقع ، هذه العملية التي يوليها الكثيرون من فرط مجهودهم وطاقتهم ما تتحدد معه وجهات حياتهم وينحرف بها عن امكان بلوغ مراميهم الخاصة وتطلعاتهم الذاتية المشروعة ، فقد تتطلبهم ثمنا فادحا ونذرا غاليا عزيزا ، لا أغامر فأقول ان الحمداني راض نفسه على الانغلاق في كل شيء حتى ولم تلق تيارات التجديد في ادبنا العربي المعاصر ، وبالنسبة لكافة فنونه وانواعه ، قبولا او تأمينا على صحتها وتسليما بوجاهتها وموضوعيتها والضرورات التاريخية التي استتبعتها ، وحسبنا ان نتلمس حماسته وصدقه في الدفاع عما يعتقد ويدين به من منطلقات الفكر والرأي ، حتى وان كان ذلك مخالفا لما نرتأيه ونتبناه ومباينا له تماما . فعنده ان «الشعر الحر مجال سهل يسير او هو تسيب وانحراف» ، وهو ان يقطع علينا منذ البداية مجال التصدي لمناقشة تلكم الاراء والتدليل على مجانبتها الواقع التاريخي الذي نجوزه في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية والادبية ، فشافعه على خطالة المدعى وجمود الفكرة ، حرارة

ايمانه فيما يعتقد انه الصواب والحق دونما اضطرار للانتحال والزيف واصطنــاع الحجـة .

لذا فقد وضح ان قصائده تجري بمجموعها على الطريقة التقليدية في النظم الكلاسيكي الملتزم بوحدة الوزن والقافية ، ولا نسارع الـى الاقرار بالتزامها عمود الشعر ، ذلك ان بعض نقادنا القدامى ، قـد اشتطوا من قبل ، في مؤاخذة ابي تمام ومن نحا منحاه من اشيـاع طريقته في النظم ، فراموه بالخروج على عمود الشعر بسبب ابتعاده عن استهلال القصيدة بالغزل او مناجاة الطلول ، على غرار ما يعمـد لذلك شعراء الجاهلية ويلتزمون به ، وتوسله لغرضه من النظم بدون مقدمة او تمهيد ، رغم تقيده بوحدة الوزن والقافية ، وقصدنا التدليل ان من بين نماذج الشعر التقليدي ما وسم بالخروج على العمود ايضا.

ولا يضير ان يعاف شاعر طريقة الشعر الجديد اذ هي الاخرى لا تقضي بانعدام جدوى الطريقة التقليدية الكلاسية في تجسيد عناصر تجربة الشعور والوجدان ، فالشرط الهام الواجب المراعاة اكتنـاز القصيد واحتفاله بالتجربة الصادقة والمعاناة المخلصة الواقعية وانتفاء كل ما يسمه بالانتحال والافتعال والتكلف وانعدام وحدة النسيج فـي معانيه ومبانيه معا ، وحتى الاغراض الشعرية التي يعنى الشعـراء بتداول المعاني التي تلهم بها وتحض على استيحائها وتمثيلها في التأدية الفنية والتعبير الشعري ، ليس لها في ذاتها ادنى اعتبار انما تتمثل الدلالة الشعرية في صحة التجربة وواقعية المعاناة ومدى امكان الشاعر نفسه من رهافة الحس وتدفق الشعور وجيشان العاطفة وحدة الانفعال في تحصيل حاصل ، من هنا فقد اعتد اطلاع الشاعر الحمداني بديوانه الذي ترجح فيه حصة ـ الاخوانيات ـ على ما عداها من اغراض الشعر الاخرى ، من قبيل ما يشبه المجازفة غير مأمونة العواقب ، فقد تنصب عليها المؤاخذات المتخرصة والنقدات اللاذعة المتجنية التي لا يمسك ذووها من الزام الشاعر باحتضان التجارب المجتمعية والتصادي حيالها والاستقاء منها ، وقد تستهويهم دعوتهم ويبلغ تعلقهم بها حدا يقترب بها من العنت والاقتسار فلا ينفسح حيال ابصارهم مجال المرونـة والتسامح والمهاودة في مناظرة المخالفين فيقروا للشاعر باعتبار مناجاته لاخوانه ومعارفه من قبيل التجربة الفنية الملهمة بالشعر الصادق .هذا الى ان تجربة الشاعر قد توفي ان استوت لها خصائص الجدة والاصالة والعمق والشفافية على المشاعر والاحاسيس الاخرى التي يمكـن ان يختص كل منها بغرض بعينه وينمى له وينسلك في رعيله الاخوانيات، بعد ، غرض شعري طغى في القرن الفائت على اغلب نتائج شعراء تلك الفترة المولية ولم يدعوا أيا من المعاني والمضامين التي تتعلق بها وتمت لها بصلة دونما تجسيد او تناول ، على فرط تسليمنا برداءة المستوى الفني للشعر انذاك ، واقترابه من حد التهافت اللفظي والصياغـة العقيمة . اما ان ينص الشاعر في مقدمته لديوانه من ان هذا الغرض لم يكتمل نضجه ويتسع مجاله كباقي أغراض الشعر الاخرى ، فذا ما لا نسيغه ونقر بصحته اطلاقا.ومحاولة استعراض مجمل اشعار عبدالغفار الاخرس وسعيد الحبوبي وعبدالحميد الشاوي ، تكفي وحدها ، فـي ملتنا ، للتدليل على ما نلهج به من ان الاخوانيات غرض شعري قديـم اخلقه التداول المستمر ، وادعاء التجديد لا يعني البتة عياف هـذه الاغراض واطراحها والزهادة فيها ، ذلك ان الاستهداء برؤى العصـر والانطلاق منها صنو ما يحمل على احترام ارادة الانسان الخيرة واكبار عواطفه الحميمة البارة بأخيه الانسان ، وقبلا ألمح العقاد منذ بدايـة العشرينات من هذا القرن ، الى ان نزوع الشاعر الى العناية بوصف بعض المخترعات الحديثة بديل الناقة التي استهون شأنها في مجـال استخدامها واسطة للنقل ، لا يتجه به نحو الحداثة والعصرية ويضمن له اعتراف الاخرين بمواكبة العصر وتمثل تجاربه الحية .

أسلفنا ان الاخوانيات في ديوان الحمداني هي الميسم الغالب اذ يتعداها في الاقل القليل الى الغزل الذي يدفع به الى الاخذ بأسباب التجديد الاولى التي كان لمدرسة المهجر فضل الاطلاع بها منذ استهلالة القرن الحالي ، كأن يجوز التعدد في الاوزان والقوافي في نسج القصيدة الواحدة ، وذا لا يعني بحال اقترابه من الوحدة العضوية في القصيدة وتوسله للربط بين اجزائها ، بحيث ينم ذلك عن تجربة فنية متكاملة العناصر ملتحمة الاجزاء منسجمة في تدفقها وتناميها ، وقصيدتـه «طوف الياسمين» من خير ما يصح الاستدلال به على انفتاح الشاعر وجنوحه للتساهل في ميدان التعبير الشعري، فيشايع محاولات التجديد الاولى التي مهدت، سواء وعى ذلك ام غفل عنه، لظهور الشعر الجديد منذ نهايـة الحرب العالمية الاخيـرة .

وتأدية الشاعر دالة بشكل بالغ على وفرة محفوظه مـن الشعـر القديم او اطلاعه على نماذج وشواهد كثيرة منه في اقل تقدير ، حتى وكأنه لم يمل من هذه الرتابة الموسيقية والصياغة اللفظية التي تحرص غاية الحرص على ان يرتبط اول البيت بآخره ، ليفرغ منه الشاعـر الى الشروع في محاولة نظم البيت التالي والتفكير في تخير الفاظـه ومفرداته وفق طريقة دالة على سلامة اللغة ومتانة التركيب وبراعـة التصوير وقوة المعنى كما يعبر نقادنا القدامى .

لغة الحمداني لغة سليمة تمت الى الاصالة العربية المحببة بأوثق الاسباب ، قدر ما تزدان وتفتني برصيد وافر من الوضوع واليسـر والسلالة ، فليس من بين مفرداته والفاظه ما ينطبع بالتعقيد والتوعر والنبو عن الاسماع ، او المهجور الذي يحوج الى تصفح المعجم ، دلالة وعيه الكامل بضرورة استلهام الواقع في التعبير الفني ، وصياغتـه الكلاسية رغم جدتها واحكامها واستهدائها بأعرق طرائق الشعـــراء الكلاسيين في النظم ، من الاحتفاظ بالروي الواحد الذي حد من قدرة الشعر العربي وتوقه لاحتضان التجارب الانسانية الكبيرة كتجربـة الشعر الملحمي ، فقد لا تمسك به عن التورط في النثرية التـي لا يسهل تحاميها وتنكب جادتها الا بالنسبة لشاعر ضخم بلغت تجربتـه ووعيه من النضج والاكتمال والاخلاص والخصوبة حدا فائقا تأتى لـه معه ان يفي بشرائط وخصائص التأدية الفنية التي لا تعنى بحال تأدية متعسفة بواسطة الالفاظ النثرية في الشعر التقليدي غير المنفتح على الميادين الجديدة في التعبير الفني وغير الآخذ منها بقدر او نصيب ، قد تكون وليدة احدى ظاهرتين . اما ان الشاعر ادركه الكلال وحامت بتجربته الشعورية عوامل الزيف والانتحال وجانب بها عناصر الصدق والحرارة والتدفق فلم يعد يستأثر به الانفعال القوي الملهم بالشعـر الصادق الخلاق ، او انه قليل الخبرة بالمراس الفني فلم تطاوعه عدته وامكانه لتصوير عاطفته وتسجيل احساسه ، فتجيء تأديته دون مستوى المعانـاة الشعوريـة :

وترجـع ايـام اخاف رجوعهـا ... فيجثم كابـوس علـي ثقيـل

من قصيدة « عند الرحيل »

«أجعفر» حطمنا الوشائج مـن دم ... لنثبت ان الحب اقـوى دواعيـا

شكرت جهود المخلصيـن أحبـة ... لكـم كانوا لي عونا الى الان باقيا

اطلت عليك القول حتـى مللتـه ... ولست ارى قولي بحقك وافيـا

وما كنـت الا ان آتيتك مادحـا ... كما قبل حين قد اتيتك هاجيـا

من قصيدة «وعينيك»

ان الطغاة اذا جـاروا بحكمهـم ... لم يترك الجور للطاغيـن سلطانـا

وكلمـا قد اذاقوا الشعب من عنت ... فانهم قد ازادوا الشعب ايمانـا

من قصيدة «بين ثورتين»

والاداء النثري يترتب عليه بطبيعة الحال مباشرة التعبير والتوسل للافصاح عن المعنى الذي قد يكون عميقا بالغ الدلالة او جديدا مبتكرا على وجه وان احتفل بالزخرفة اللفظية والتموسق الخطابي والنبـرة الصخابة ، الا انه ينذر حظه من القدرة على الايحاء بهذا المعنى حتـى يستكنهه القارىء ويحيط بفحواه من طريق التمعن فيما يغلـب علـى عبارته من الاستعارات والمجازات وضروب الخيال والتشبيه ، ان النثرية

لا تداخل التعبير الشعري او النظمي على وجه اصح ، الا حين يسكت صوت الانفعال الحاد في اعماق الشاعر فما تختلج في وجدانه عاطفة او يغتلي شعور ويتفجر حس .

لكن حين يكون الشاعر صادقا مع نفسه واقعيا في معاناته الفنية، أصيلا في رعشته الوجدانية ، اعني حين تستغرقه التجربة بكافة عناصرها وابعادها ، التجربة النامية الحية ، الصادقة غير الزائفة ،فقد يمكنه العبارة عن واقع شعوره واحساسه ، بما يلزم من التعبير الابداعي الحافل بالجدة والنضج والدال على الخصوبة والعمق . رغم ان التجربة قد تكون قديمة سبقه اليها آخرون واخلقوا معانيها وتعاوروا مضامينها ، فقد يستوي الكل في تذكر حنان الوالدة الراحلة والاعتراف بفضلها وحدبها واشفاقها وتقدير جهودها واتعابها ، لكن ليس من الهين بالنسبة لهم جميعا امكان التوفر على استلهام الشعر الدافق من هذه المعاناة . بينا ينهد اليه اولا القادرون على التعبير الوفور والصياغة الفنية الفنية بالاستعارات والمجازات والتشبيهات وكافة ادوات الايحاء بالمعنى بديل التوسل له بالطريقة المباشرة واللجاجة في الخطاب :

طواك الردى عنا وقد ضمك اللحد ... فمتى تراب القبر قد شفه الوجد
طواك ولم يرحم شبابك والردى ... عنيد اذا ما جاء ليس له رد
طواك وانا لم نزل لك صبية ... صفارا يغذينا على الصفر الود
وكنا كمثل العقد يزهو لألئا ... ولكن اراد الموت ان يفرط العقد
يمينا أيا أماه كل بديرة ... غريب وكل قد أطاح به البعد
وكل أفاءته الخطوب ظلالها ... فكل له خطب وكل به وقد
ولكن تلم الشعث كل ملمة ... فنحز على الاحزان مجمعة فرد

والابيات تلكم تنظر الى قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده ، في رصانة تعبيرها ومتانة صياغتها وترسمها منحاه وطريقته في تخير الالفاظ والمفردات ، الا انها لا تنفي عن الشاعر صدق عاطفته وانسانية شعوره ، وفرط احساسه باللوعة والاسى .

وعندي ان اروع قصائد الديوان ، قصيدتان الاولى «الهاربة من المدرسة» ، والثانية «ثم عدنا» .ولا بد لنا من ازجاء كلمة مبتسرة حولهما ، فالاولى من قصائده المنظومة عام ٥٤ ، حيث استلفت نظره مشهد صبية هاربة من المدرسة بتغرير غوي ماكر ، فامكن له ان يصور ما خلفه ذلك المشهد من اثر في نفسه وجاوزه الى الاقتراب مما يمت الى الابتكار والابتداع والجدة ، وينمى له باوفر قسط ، الامر الدال على تنامي التجربة الفنية وعمق دلالتها ، وحتى الصياغة تجيء تلقائية حيث تطاوعه الالفاظ وتتسنى لامكانه وحاجته من دونما اقحام او تعسف او زج كيفما اتفق ، فجاءت في عموم ابياتها بديعة النسج بالغة العذوبة جميلة الوقع في السمع وكأن لم تجر على الرتابة الايقاعية في تأديتها وصياغتها :

أين ما شئت الى اين اذهبي ... هذه دنياك احلى ملعب
شرقي حيث تشائين بها ... واذا ما شئت فيها غربي
رقصت دنياك أحلى رقصة ... وتغنت بالاماني فاطربي
فلم الذعر اتخشين الهوى ... وجحيم الخافق الملتهب
اما تخافين الاولى قد فشلوا ... ان يقضوها بعيش طيب
الحياة اليوم حلم رائع ... سوف يمضي في ركاب الحقب .
اين من عمر يقضى في هوى ... وحياة تنقضي في تعب
وشراب علقم يجرعه ... من تعامى عن شراب العنب

فاما قصيدته الثانية «ثم عدنا» التي يحيي خلل ابياتها صديقه الشاعر صادق حمزة ، فيتعدى في مضمون تجربتها حدود ما يؤلف بين معاشر الاصدقاء من الاشواق والخلجات والعواطف ، اذ ينفتح فيها الشاعر صوب ما كان يتهضم صفيه من البلوى وينزل به من الضير ، فيتاح له ان يتوسع ويتزيد في ابتداع المعاني التي يضفي عليها هالة رمزية محببة ، ويخيل معها انه يستقي هذه المرة من معين تجربة مجتمعية دافقة .

كنا أخي تقودنا الاقدار ... واليوم أمست في يديك تدار
ما شئت فامض حاكما في أمرها ... لا تخشى ان يودي بك الاعصار
اليوم قد خضعت برغم صروفها ... هذي الحياة فصرحها ينهار
واليوم مدت كفها مشلولة ... وقد اعتلتها ذلة وصغار
واليوم بان الزيف في ايامها ... لذوي العيون وادهش النظار
وبدا لنا ذاك الطلاء مزيفا ... حين انجلى وتكشفت استار .

الحمداني ، على هذا التحصيل ، شاعر رغم اتباعيته ، فقد لا تجانبه الاصالة في التعبير عن خلجات حسه ودفقات وجدانه ، او يرجح عنده جانب الفن المشرق على اللفظية الجامدة المحكمة النسج والبالغة الصنعة ، في كثير من الاحيان ، ولعل لتجارب العمر وبعض المتاعب المرهقة العسيرة الاحتمال ، ابلغ الاثر في ظهور سمة الوعي والتعقل وغلبتها على معانيه على حساب التهوين من دالة الانفعال القوي والعاطفة الانسانية الملهمة بالشعر الخالد الباقي .

الحلة ـ العراق

مهدي العبيدي

•

الظل .. وحارس المقبرة ..

مجموعة من الشعر الحر ـ لفايز خضور ـ ٩٦ صفحة ـ طبعت في دار ابن زيدون للطباعة والنشر بدمشق

المذهب الجديد الذي طلع به علينا الشاعر فايز خضور في دنيا الشعر العربي المعاصر في مجموعته الاولى «الظل..وحارس المقبرة» هو مذهب «رفض الرفض» . وكان قبله مذهب الرفض ، الذي يعني خيالية الاشياء غير الواعية..بينما «رفض الرفض» عند فايز ، يعني تعميق

الاشياء بالاعتماد على الاسطورة والفولكلور ، عن طريق استلهام الماضي وزرعه في الواقع ، لمحاولة خلق صورة مستقبلية للشعر المعاصر . والاصلاح – عنده – لا يكون عن طريق الترميم ، وانما عن طريق الاقتلاع الجذري للمفاهيم البائدة ..

انه لا يعني الايجاب كما في علم الرياضيات وانما يفيد تعميق التجربة ووضوح الرؤيا الشعرية والخلق الكلي اثناء تبديل الاحساس الداخلي للاشياء ..

فعندما حاول بعض شعراء الرفض – وحتى الكبار منهم – فان محاولتهم لم تتعد بعض زوايا المضمون ، مع اعتمادهم في اغلب الاحيان على المنظور فقط.حتى انك لا تشعر وانت تقرأ لهم بفرق جوهري عن جو الشعر السلفي سوى في تحطيم الاوزان.بينما رفض الرفض ، هو عبارة عن معركة لخلق شكل خاص ومميز.. فبالنسبة الى الكلمة ، لم تعد تحمل المعنى الوضعي لها ، بل اصبحت تحمل المعنى النفسي الذي يتلون مع تعدد التجارب ، كما ان «الصورة» لم تعد تحمل المعنى المستقل الوصفي للاشياء ، وانما اصبحت تكون جزءا من اللوحة العامة «للقصيدة التجربة» مرتكزة على صلتها المتينة بما قبلها وما بعدها من صور . حتى تشكل الخيط الفكري الواحد ، او الخيط الفني الواحد للقصيدة ، وهذا ما يميزها عن الشعر السلفي ..

فمن هذه الزاوية تبدو القصيدة المعاصرة عند فايز خضور جديدة ومجدية ، ليس همها الوحيد الاطراب او بعث شعور الحزن او الفرح او الشفقة او السخرية ..بل هي مردود لعالم كامل يحيا في الشاعر ، في اعصابه مع ابناء جيله من الشعراء ، اذ ليس كل جديد مجديا . وهذا ما يخرج القصيدة المعاصرة الجدية عن ترهات بعضهم بعضا حين يتلاعبون بالالفاظ ويهولون الصور بشكل تبدو فيه «غامضة» حتى لدى صاحبها ..

والغموض في القصيدة المعاصرة يختلف عن هذا الغموض المتكلف الذي يرد في قصائدهم – الامثال لدينا كثيرة يضيق عن ذكرها المجال – لانه لصيق بالتجربة كيفا وكما .. فما دامت القصيدة تعتمد على الرمز في شعرنا المعاصر سواء في الكلمة او في الصورة او في الحادثة او في الاسطورة ، فهذا يعني خروجها عن الواقعية المبتذلة التي نراها عند البعض .. وقد يلجأ الشاعر الى الرمز اما لحاجة فنية واما من جراء ضغط ما . ومنذ قديم الزمان والتلميح يغني عن التصريح ..

بيد ان الاخلاص لفنية القصيدة ، هو الذي يخلق المعركة التي تقوم بين دعاة الشعر للحياة وبين دعاة الشعر للجمهور ، مع خطأ فهم الجماهيرية حتى لدى شعرائنا – الان – . وليس هناك ما يسمى مذهب «الفن للفن» مجردا .وانما يكون الشاعر حتى في هذه اللحظة ملتزما حيال احاسيسه ، وانعكاس مرايا المنظور عليها . وليس مجالنا – هنا – لمناقشة انواع الالتزام. فقد يكون هناك انسان متلون الالتزام ، رهنا بما تحدثه القضايا الاجتماعية والسياسية..وقد يكون هناك من هو ملتزم بارضه وشمسه واحاسيس جيله ، فكلا الشاعرين ملتزم ، ولكن شتان بين جدوى الالتزامين . فالاول يغير التزامه مع وجهة الريح،اما الثاني فيجابه بالتزامه ضد الريح .ونحن لا نخطىء الاول ولا نناصر الثاني ، وانما يمكننا القول : بان هناك فرقا جوهريا حتى في طريقة كتابتهما ، اذ انه ، لان يحيا الانسان شيء ، ولان يعيش شيء آخر .. فالحياة والمعيشة مختلفتان لدى الفنان الاصيل .. فمهما قدم الملتزم الاول من مبررات ، تبقى حياة الملتزم الثاني وصدقها اكثر استمرارا وجدوى ، ولو بعد حين ..

بقي علينا ان ندخل قضية الاحساس في الشعر المعاصر لنعرف به وبعلاقته المباشرة بالقصيدة ..فالاحساس السيكولوجي للشعر مقرون بنوعية هذا الشعر .. فاذا كان الشعر عاطفيا يحس القارىء حياله بمتعة ظاهرة تمثل لديه خيط حنين لتجربة سابقة..اما موقفه حيال شعر جديد ، فيكون من زاوية خلق غامض لعالم مستقبلي يبشر بتجارب مقنعة لا تنكشف للقارىء آنيا ، وانما يحسها داخليا ، ويشعر بتجاوب غامض تجاهها .فاذا اعملنا التفكير به يمكن ان نتلمس خيوطها .. فقد يقرأ الشاعر المعاصر قصيدة غزلية او قد يكتبها ، فهو في هذه الحالة – تماما – ليرفه عن اعصابه على طريقة استحضار الذكريات..

فمن هذه الزاوية يبدو لنا الشعر المعاصر غامضا وبخاصة على الذين تجمدت تجاربهم واستقطبت في عالم الحنين فقط والذكرى ..

ومن خلال تلك اللقطات شدتني مساحة الضوء الغامرة لمجموعة «الظل ، وحارس المقبرة ».فلادخلن اذن الى هذه الحياة الجديدة .

ان «فايز» يبدأ بمحاورة الاشياء وصهرها ضمن ذاتيته الشاعرة ، معتمدا على الحوار الداخلي للاجزاء الحياتية التي يصنع منها عالمه الخاص المستقبلي ، والتي من خلالها يرى الكون وقد علاه غبش الخيبة وخمشته النوارس في الخليج ، هذا الذي يرغب بالدخول اليه كي يهدأ..ولكن المرارة تحز فمه ، وفي عروقه يتغلغل الدوار . وفيما كانت الرحلة نحو ولوج عالم هادىء مخلص ، تثني اندفاع صاحبها زحمة المطر .. انها المجابهة السلبية من العالم..والرمز الذي يعتمد على المطر في هذا النشيد الاول «حوار الخيبة – ص ٧ – » يعني ذلك . في الوقت الذي نلمس فيه بان المطر في بقية الاناشيد (ص ١١ – ١٤ – ١٥ – ١٨) وفي قصيدة «اصابع المطر» (ص ٣١) وغيرها ، يعني الخلاص :

> عاش من رآك يا غريب
> يا مبحرا مع الشتاء رغم زحمة المطر
> متى أتيت
> أتيت بعد ان تفبش القمر (حوار الخيبة)
> ومـرت ..
> ضحكت .. وأيقنت من وجهة الريح ان غيوم البشارة تمضي
> ويبقى الظماء يغنون رغم ضياع القرابين
> يا مرتجى ، يا مطر (الميلاد والمطر ص ٦٥)

«الريح» تعني الابعاد التي تحيط بظروف حياتية موضعية ، اما «المقبرة» فهي المدينة التي تسحق كل شيء ، ونتلمس فيها كل شيء : الذين تاهوا..والذين يشدون حداة القوافل الذاهبة في عيون الامسيات الغريبة ، بينما يحدق الخوف بحارس المدينة – المقبرة ، طالبا منه الاستمرار بالنعاس . وهذا الخوف ليس من الاستمرار – بل ليس خوفا ماديا ، وانما من سلبية البقاء ، لان الحارس الذي يرمز الى الظلم والاضطهاد ، يطلب منه الشاعر ان يتمطى ويذهب ، ذلك لان في الارض حقول خزامى وآس .. لان فيها الخير والجمال ، لان فيها «الظل» الذي يرمز الى الخصب والنماء ..

والخلاص الذي يطلبه الشاعر لا يعني الهروب من الزوايا والمعابر الكلية ، بل يعني – عنده – الاستمرار بالتمسك بالارض.وهو وان عبر عنه بالمطر فانما يريد الانفتاح على العالم ، هذا الانفتاح الذي لا يدعو – في عرفه – الى شمولية الاشياء . وانما لاستقطاب الاشياء ورصدها في ارض الوطن..وما استعماله لرموز الابطال في الاساطير الا ليعبر من خلالها الى قلب الشخصيات المنقذة من الرعب والدموع ، من الانكسار والهزال والاستسلام :

> هلا بسيف (بختنصر) السجين خلف كوة القرار
> لكنها تكسرت اضالع السماء
> رجعت والدوار
> يشدني اليه شد عاشق
> فزعت أن أدوخ ، ان تخونني النجوم في المدار (ص – ٣٠)

فـ (بختنصر) هذا ، هو فارس قديم احرق اليهود وشردهم .. ان الشاعر يلج بالفعل عالما جديدا ليقف بالانسان على سفوح مشرقة بعد عناء وتعثر طويلين ..انه الانسان الذي اضاع كينونته الاولى وامسى اشتاتا ..انه نداء الخلاص من السلبية . ولذا فقد كانت صرخته – رفض الرفض – حادة تمزق شرانق البقاء ، المنكفىء المتلوب على

نفسه ، المتقعر على اشيائه .كل ذلك من اجل الانفتاح على الحياة في الارض الام..انها الصرخة الاولى لانتصار المبدأ الانساني على المظالم ، علـى السـلاح والقهـر :

كان لي يا حارس الدحداح جاره ،
أتملاها فما ، صدرا ، حنايا
نقطة البدء بعينيها التلاشي
طيبها ينسل كالرؤيا ، يشتى في غواياتي عذاب
وعروقي تبتغي قبـر الخلاص
يا نهايات الحنايا
آه من قبر الخلاص (ص ٢٤)

والدحداح هي مقبرة دمشق القديمة ، هي المدينة القديمة بكـل أساطيرها و «وصاياها» يتغلغل الشاعر في عروقها ليبتغي الخلاص من الترهات والاشياء البليدة الجافية ..من الوهم ومن الشعور بالهزيمـة التي تغلف روح الجيل ، وربما الوطـن ..

قلنا انه يتعمق الاشياء بالاعتماد على الاسطورة والفولكلور عـن طريق استلهام الماضي وزرعه في الواقع .. وهو اذ يفعل هذا انما مـن اجل تحطيم البعد التقليدي للصورة الشعرية في زمننا الحاضر . وما ادخاله لمفردات الفولكلور وترصيع القصيدة المعاصرة بها الا من اجـل خلق الصورة الشعرية كعودة الى الاساس المستقبلي .ان الاسطورة عند فايز تكاد تكون واقعا ملموسا يعيش بين ظهرانينا ، ولكن بروح جديدة ودم جديد ، انها الاعصاب المخلصة المتعبة التي خلقت لتكون رفـض الرفض .. لتجعل فارس التاريخ يزرع الارض بالريح ويبني الواحات فوق الرمال الطامية..انه «الكشف» الجديد لانسان اضاع دربه وعكازه ، فقد ثقته وتعلق بالشمس بالتربة التي انبتته ...

فبعد هذه اللمحة عن المضمون بكل مناخاته وارضه و «تنـوع» موضوعاته ، ننتقل الى «الشكل» عند فايز ..

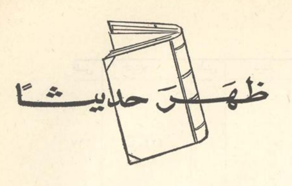
فتحطيم القافية والبعد الرياضي للصور الشعرية لا يعني شعـرا معاصرا ، بـل يعتمد الشعر المعاصر عنده ـ وعند غيره مـن شعراء جيله ـ على الرؤيا واختيار التجربة ، وحسن انتقاء الزوايا الحياتية التي يهمها الانسان كاحساس وليس كابعاد وصفية..كل هذا يجري عن طريق الرصد الدقيق للصورة ، مع تحميل الكلمة بعدا نفسيا جديدا ، يعتمد على الارتكاز الصوتي وليس على ارتكاز القافية..اذ ان موضوعات الشعر عنده اصبحت مستقلة عن كل ما يجري في الحياة من اشياء هي اكثر التصاقا بمهنة الثائر او المصلح الاجتماعي ..

ان كل هذا يعتمد على تيار الشعور وتراسل الحواس كما هي الحال في الرمزية ، مع الاعتماد على التفعيلة الواحدة في «السطر الشعري». وقد يتغير الوزن ضمن القصيدة الواحدة ، وهذا رهن بـ «نوعيـة» التجربة ، لان التجربة هي التي تملي الوزن كيفيا وليس الشاعر .. وذلك حتى يتميز الشعر الحقيقي عن النظم ، ويدخل في هذا المضمار «القصيدة النثرية» التي تعتمد بدل التفعيلة الواحدة على (الديالوج) الداخلي للصور الشعرية ، هذا الديالوج الذي نجده ايضا في القصيدة المعاصرة الحرة عند الشاعر خضور في هذه المجموعة بالذات ..

وهكذا فان الشعر الحر قد ادخل على مفهوم الشعر العربي قواعد جديدة ، منها ان الشعراء المعاصرين قد بنوا القصيدة الحـرة علـى اساس «تفعيلة» البحر الواحد والنبرة الموحدة في السطر الشعري الذي تتألف منه عضوية القصيدة ، وهكذا يصبح الايقاع الصوتي ناتجا عن عودة المقاطع في آخر كل سطر او ثلاثة او اربعة ..الخ.

أخيرا في المجموعة (الظل وحارس المقبرة) شعر جديد ومذهـب جديد .. فما الحبيبة فيها الا الفكرة والعقيدة ـ الاساس ـ وانتصـار المبدأ الانساني بواسطة المنقذين ، وما «النواقيس» وكلام «المنجمين» ـ عنده ـ الا الرمز عن الافكار التي لا تتناسب مع تمرد العصر والشعر المعاصر كاحتجاج ، وما «العراف» لديه الا البحث المستمر لصالح الحياة الافضل.. الحياة المجدية التي تمردت على السلبية ، مدخلة في صيرورتها الفكرة الحرة ، تروي ظمأ الدروب من دمنا ـ كجيل ـ لتبقى الارض اغنيـة لا تنسـى ..

دمشق — اسماعيل عامود



- رجع الصدى ـ مجموعة شعرية ـ صلاح اللبابيدي ـ ٢٠٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الثقافة ببيروت ـ مطابع دار لبنان (؟)
- الشيء ـ مسرحية من ثلاثة فصول ـ تاليف الدكتور شاكر خصباك ـ ١٤٨ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية فـي صيـدا وبيروت ـ المطبعة العصرية في صيدا لبنان
- الرمال والعيون وقصص اخرى ـ مجموعة قصص ـ تاليف عصام عسيران ـ ١٨٤ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- موسم الراعي الحزين ـ شعر ـ محمود ختام ـ مصمـم الغلاف ثروت سيروان ـ ١٧٢ صفحة ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ مطبعة الانشاء (؟)
- هيغل وفلسفته ـ تاليف رينيه سيررو ـ مع ملحق بقلم اندريـه كريسون ـ ترجمة نهاد رضا ـ ١٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الانوار بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- ثورة من وراء القضبان ـ شعر ـ محمد فهمـي الحمـدان ـ ٤٠ صفحة ـ حجم صغير ـ مكتبة ربيع بحلب ـ مطبعة الشرق بحلب .
- ماساة الانسان المعاصر في شعر عبد الوهاب البياتي ـ بقلم مجموعة من الادباء ـ مصمم الغلاف احمد مرسي ـ ٣٠٤ صفحة ـ منشورات ومطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة .
- رسائل بورقيبة الى صديقه محمد علي الطاهر ـ ٩٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مع عدة رسوم تذكارية ووثائق تاريخية ـ طبع في بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- سطور من الرسالة : تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة ١٨٧٧ ـ تاليف عادل الصلح ـ ٢٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع دارالعلم للملايين ببيروت
- صور من الجهاد ـ تاليف زيد بن عبدالعزيـز بن فياض ـ الجزء الاول ـ ١٠٤ صفحة ـ مطابع القصيم بالرياض .
- الحركات الباطنيـة في الاسلام ـ تاليف مصطفى غالب ـ ٣٠٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- ايام مغربية ـ تاليف قمر كيلاني ـ ١٧٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

شركة التبــغ والسجاير الاردنية

عمـــان

الميزانية العموميـة كمــا في

البيان	دينار	فلس	دينار	فلس
موجودات ثابتة بالكلفة او التثمين				
اراضي وعقارات وماكنات واثاث وسيارات (بعد الاستهلاك)			٤٢١٠٩٨	٢٩٧
استثمارات				
اسهم شركات			١١٠٠٠	٠٠٠
موجودات متداولة				
دخان وسجاير ومواد اولية (سعر الكلفة والتقدير)	٨١٦٧٦٦	٣٠٠		
مدينون مختلفون ومصاريف مدفوعة مقدما	٢٣٤٧٨٧	٩٠٧		
تأمينات اعتمادات مستندية	٥٧٩٠	٠٠٠		
تأمينات عامة ومطالبات تأمينات	١٢٣٢	١٥٢		
اوراق قبض	١٤٨٣١	٤٠٠		
نقد في الصندوق ولدى البنوك	٨٤٧٩	١١٣		
مجموع الموجودات المتداولة			١٠٨١٨٨٦	٨٧٢
مجموع الموجودات			١٥١٣٩٨٥	١٦٩

البيان	دينار	فلس	دينار	فلس
مصروفات ورواتب واجور وتبرعات واعلانات وضرائب ورسوم	١٨٥٦٩٥	١٧٣		
اتعاب مجلس الادارة	٤٧٥٥	١٢٤		
احتياطي ضريبة الدخل والخدمات الاجتماعية	٢٠٤٤٩	٧٤٧		
الارباح الصافية لسنة ١٩٦٥ بعد الضريبة منقولة ادناه	٤٨٠٧٩	٥٨٧		
			٢٥٨٩٧٩	٦٣١
احتياطي راس المال الاجباري	٥٢٨٣	٤٧١		
الارباح المقترح توزيعها	٥٣٤٦٠	٠٠٠		
رصيد الارباح المدورة	٣	٧٤٣		
			٥٨٧٤٧	٢١٤
			٥٨٧٤٧	٢١٤

المساهمة المحدودة (شركة مساهمة عامة)

الاردن

٣١ كانون الاول ١٩٦٥

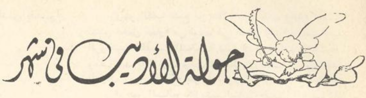
	فلس	دينار	فلس	دينار
حقوق المساهمين				
راس المال المصرح به			...	٤٨٦٠٠٠
راس المال المكتتب به والمدفوع كاملا	...	٤٨٦٠٠٠		
احتياطي راس المال الاجباري	١٤٦	٨٠٢١٨		
الاحتياطي الاختياري	٣٤٤	٧٧٩٣		
رصيد الارباح المدورة	٧٤٣	٣		
مجموع حقوق المساهمين			٢٣٣	٥٧٤٠١٥
احتياطي ضريبة الدخل والخدمات الاجتماعية			٧٤٧	٢٠٤٤٩
مطلوبات متداولة				
بنوك دائنة	٠٦٧	٤١٨٧١٣		
اوراق دفع	١٦٧	٢٧٦٠٦٤		
دائنون مختلفون واستدراكات ومطلوبات مستحقة	٩٥٥	١٧١٢٨٢		
ارباح مقترح توزيعها	...	٥٣٤٦٠		
مجموع المطلوبات والارباح المقترح توزيعها			١٨٩	٩١٩٥٢٠
مجموع المطلوبات وحقوق المساهمين			١٦٩	١٥١٣٩٨٥

	فلس	دينار	فلس	دينار
ارباح الاتجار	٢٦٣	٢٥٣٩٦٧		
ايرادات اخرى	٣٦٨	٥٠١٢		
			٦٣١	٢٥٨٩٧٩
ارباح مدورة	٦٢٧	٢١٦٧		
الارباح الصافية لسنة ١٩٦٥ بعد الضريبة منقولة من اعلاه	٥٨٧	٤٨٠٧٩		
المحول من الاحتياطي الاختياري	...	٨٥٠٠		
			٢١٤	٥٨٧٤٧
			٢١٤	٥٨٧٤٧

ديب غانم — عضو

كمال عصفور — عضو

فريد السعد — رئيس مجلس الادارة



لبنان والسياحة

•

تعير الدول الراقية السياحة اهمية كبرى . وترتكز عليها في النهوض باقتصادها . ولذا فانها تعمل جهدها لجلب السياح الى ديارها بواسطة دعاياتها في الخارج والتسهيلات التي تقدمها لهم اثناء وجودهم في ربوعها .

ولبنان اخذ ، في السنين الاخيرة ، يولي السياحة اهتمامه الاول بعدما وجد بانها المعين الوحيد الذي عليه يتكأ في تطوير حياته الاقتصادية والاجتماعية . لا بترول عنده يستغله لاثراء بنيه ، ولا تجارة واسعة يعتمد عليها ، ولا صناعة ثقيلة تكيف وضعه . السياحة وحدها هي التي تنهض به . اذن يجب الاعتناء بها خارجيا وداخليا ، بعدما اضحت اولى الصناعات الوطنية .

فلبنان ، بفضل موقعه الجغرافي على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، وعلى عتبة آسيا ، يستطيع ان يكون مركزا سياحيا فريدا ، يجذب اليه السياح المشوقين دوما الى الاجواء الهادئة والمناظر الطبيعية الجذابة .

نشاط المجلس السياحي

الدعايات عنصر كبير من عناصر تقدم حياتنا السياحية . فالمجلس الوطني للسياحة – منذ نشأته – ما برح يبذل قصارى جهوده لانماء السياحة في هذا البلد ، وجلب اكبر عدد ممكن من السياح الى ربوعه المضيافة ، العريقة بتقاليدها ، التي تروي قصص الشرق الساحرة ...

خلف الشطوط افتتحت عدة مكاتب سياحية تعمل للدعاية للبنان ، وتقدم كل المساعدات الممكنة الى السياح الذين يودون تمضية اجازاتهم السنوية في ربوعنا او زيارتها لايام معدودة . انها تزودهم بالنشرات العديدة التي تتحدث عن جمال لبنان ومناخه الطيب واثاره الرومانية الباقية على ممر العصور تروي الاساطير القديمة، وتعيد الى الاذهان حياة الاباطرة الرومان . تتحدث عن السياحة الشتوية فيه التي شرعت بالازدهار ، وعن مصايفه الخلابة التي يقصدها اخواننا العرب لقضاء فصل الصيف فيها ، وعن جباله التي يغسل اقدامها البحر الابيض المتوسط . وتتحدث عن حياته الاجتماعية القائمة على الحرية والمساواة والترحيب بالضيف مهما كان لون بشرته ومهما كانت الجهة القادم منها .

لقد افتتح المجلس الوطني عدة مكاتب سياحية في اوروبا . في فرانكفورت وباريس وجنيف ولندن له مكاتب . كما انه يقوم باتصالات مستمرة بين وكلاء السفر والشركات السياحية، وباتفاقات للدعاية مع الصحف ومع شركات العلاقات العامة . وقد اثمرت جهود هذا المجلس في حقله السياحي . فقد نظمت عدة رحلات قام بها صحفيون ووكلاء سفر وسياسيون ورجال اعمال الى لبنان فدهشوا من سحر شاطئه وجمال مصايفه وروعة اثاره . وهذا ما دفع بالصحفيين الالمان الزوار مثلا الى نشر حوالي ٦٠٠ تحقيق صحفي مصور عن بلدنا .

كذلك فان المجلس الوطني للسياحة ، بالتعاون مع جامعة لبنان في العالم ، يتصل بالمغتربين اللبنانيين في القارات الخمس لحملهم على زيارة الوطن الام حيث الحياة فيه تتطور اجتماعيا واقتصاديا وسياحيا وفكريا ...

اما في الداخل فان العناية بالسياحة تتوفر يوما عن يوم بعدما وجد المسؤولون انها الثروة الحقيقية لانماء هذا الوطن اقتصاديا واجتماعيا . لذا فقد وضعوا عدة تجهيزات لازدهار الساحل والجبل معا .

في الساحل .. هناك مشروع يقضي باقامة مسابح شعبية على طول الشاطىء . وسوف يفتتح مسبحان من هذا النوع ، احدهما في بيروت والثاني في طرابلس ، تتوفر فيهما للجمهور مجانا جميع الخدمات التي يتطلبها السابحون . ومن ناحية اخرى اوشكت مديرية التنظيم المدني في وزارة الاشغال العامة على انجاز مشروع عام لتجميل الشاطىء . وينص هذا المشروع ايضا على منح رخص لبناء فنادق يكون مجموع غرفها الفي غرفة . وقد بوشر ببناء مثل هذه الفنادق في انحاء مختلفة من الشاطىء ، كما بنيت موتيلات في طبرجا ، وبالقرب من نهر الكلب . وفي الوقت نفسه تستمر الدراسات لانشاء مؤسستين فندقيتين بين طرابلس وبيروت برؤوس اموال لبنانية – عربية .

وهناك مشروع آخر من اطرف المشاريع ، ذلك هو مشروع تجهيز الجزر الصغيرة الخالية من السكان ، والمواجهة لطرابلس – كجزيرة الارانب مثلا – تجهيزا سياحيا.

ولتنفيذ هذه المشاريع يجب توظيف ما يزيد عن مئة مليون ليرة لبنانية .

في الجبل .. تقتصر عمليا السياحة الجبلية – ما عدا مراكز الرياضة الشتوية في فاريا واللقلوق والارز – على اشهر الصيف الثلاثة . لذا فقد وضع المجلس الوطني للسياحة برنامجا للنهوض بالسياحة في الجبال ، ينص على استثمار جميع الامكانيات المتوفرة فيه من تزلج على الجليد، ومياه معدنية، ومراكز استجمام واستعراضات متنوعة.

وهناك مشاريع عديدة ، منها الجاهزة ومنها قيد الدرس ، وضعت للاسهام بالحياة السياحية التي دلت الاحصاءات على انها الحياة الفضلى لوطن صغير المساحة ، تتوفر فيه جميع امكانيات الجمال .: واستثمارها ضروري

كما هي الحال بالنسبة للعديد من الدول التي يقوم اقتصادها على السياحة المزدهرة .

•

مواطن الجمال في لبنان

حبا الله لبنان جمالا فريدا . ويقع السائح على هذا الجمال حالما تطأ رجلاه ارضه . فاذا به في بلد يغسل البحر اقدام جباله المختلفة العلو . واذا به في وطن معتدل المناخ ، حافل بالاماكن الاثرية والمناظر الطبيعية الخلابة ، ويحرص بنوه على تقاليدهم القديمة ، ويتحلون بالضيافة وكرم الاخلاق واغاثة الملهوف . واذا به في وطن تنمو حياته اليومية في جو الحرية والعدالة والمساواة .

يصل السائح الى لبنان بثلاث طرق : طريق البر وطريق البحر وطريق الجو . ولا بد له ان يزور عاصمته بيروت في اول المطاف ، ذات النصف مليون نسمة . فمناخ هذه المدينة يمتاز بالاعتدال الدائم وتشرق عليها الشمس في اكثر ايام السنة . وفيها اثار حضارات عريقة تعود الى عشرات القرون .

ويدهش السائح عندما يرى اختلاط الحديث بالقديم في بيروت ، واختلاط الشرق بالغرب اختلاطا لا يراه في بلد آخر . وينحصر هذا المزيج في اماكن متقاربة نسبيا .

وابرز شواهد على الوف السنين من التاريخ الذي تقوم عليه بيروت هي : الجامع العمري الكبير ، والمتحف الوطني ، وجامع الخضر الذي بني – كما تقول الاساطير – فوق المكان الذي صرع فيه القديس جرجس التنين . وهناك عدد كبير من الكنائس والكاتدرائيات يتمثل فيها طابعا الشرق والغرب معا .

وبيروت ملتقى الثقافات . تكثر فيها المدارس والكليات . وفيها اربع جامعات جديرة بالزيارة ، تحتضن الوف الطلاب من مختلف البلدان العربية والبلدان البعيدة، وتدل على ان لبنان يقوم بدور جامعي يحسد عليه في المنطقة كلها .

وتزدهر بيروت يوميا من ناحية العمران . وفيها بنايات تنافس بهندستها وجمالها افضل ما في المدن الحديثة في العالم .

اما شواطئها فهي صالحة للسباحة طيلة ايام السنة. والملاهي الليلية – وهي عديدة – تقدم برامج مغرية . فضلا عن ان مسارحها شرعت بتقديم برامج فكاهية ودرامية ، وتغص بالرواد كل يوم .

وثاني مدينة في لبنان هي طرابلس . وقبل الوصول اليها يمر السائح في نهر الكلب فيشاهد آثارا منقوشة فوق صخوره تدل على مرور الفاتحين والغزاة منذ اقدم العصور ، منذ رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ونهر الكلب ينبع من مغارة جعيتا . وهذه المغارة تعتبر اجمل مغارة من نوعها في العالم لكثرة ما فيها من الرواسب الكلسية المتحجرة ذات التكوينات المدهشة . وقد زينت بالانوار . وجوها اسطوري يتضاءل دونها مدى الخيال . ويقوم السائح بنزهة بالزورق في بحيرتها الجوفية .

ثم يمر السائح بكازينو لبنان ، قبل ان يصل الى جبيل . وهو من اجمل كازينوات العالم . انه انيق الهندسة ، يقدم للزائرين الحفلات في «قاعة السفراء» التي تضارع بروعتها افضل حفلات لاس فيغاس او باريس مثلا. وفيه ناد ليلي شهير اسمه «بكارا» . كما فيه قاعات للمقامرة فسيحة ، ومسرح تقدم فيه تمثيليات شهيرة .

وفي جبيل يعود السائح بذاكرته الى الوراء ليرى انها اقدم المدن في العالم . فبانيها – حسب ما جاء في الاساطير – هو الرب ايل الكنعاني ابن قرن . وقد توالت عليها خمس حضارات . وفيها هياكل فينيقية واضرحة ملكية غنية بالحلي ، وضريح حيرام الذي نقشت عليه حروف الهجاء ، ومسرح روماني ، وكنيسة القديس يوحنا التي بني القسم الاكبر منها في القرن الثاني عشر ، وسور يعود الى الالف الثالث قبل المسيح ...

ويصل السائح الى طرابلس فيكتشف مدينة غنية بالاثارات الباقية من عهود الصليبيين والمماليك . وفي مقدمة هذه الاثار قلعة سان جيل والقناة المعلقة المعروفة باسم «البرنس» ، وكنيسة سيدة البرج ... وثمة آثار تركية ، اهمها اسواق شرقية (الخانات) وجامع المدرسة المزين بالفسيفساء ... وابتداء من عام ١٩٦٧ سيقام فيها معرض دولي مساحته ٤٠٠ الف متر مربع .

ومن طرابلس ينتقل السائح الى الارز ، فيجتاز مصايف الشمال ومغارة قاديشا الفنية بالرواسب الكلسية المتنصبة على جانبي المياه المثلجة . وتطل امامه غابة الارز المكللة بالثلوج . ومن جذوع اشجارها بنى الفراعنة سفنهم ، كما بنى سليمان الحكيم من خشبها هيكله . والارز منطقة تزلج يؤمها الهواة والمتزلجون بكثرة في فصل الشتاء .

وفي بيت الدين الذي يبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة من بيروت يقع السائح على قصر كبير بناه الامير بشير الشهابي (١٧٨٨ – ١٨٤٠) . وقد اتخذ طابع الهندسة الشرقية الفخمة ، وزينت بعض قاعاته بالفسيفساء ورسمت عليها نقوش وتصاوير تضج بالالوان الزاهية . ويحتوي القصر على متحف فولكلوري . وفي باحته الفسيحة اقيمت عدة حفلات فولكلورية ، كما اقيمت حفلة «الاسرة البيضاء» منذ عامين .

اما دير القمر المتلاصقة ببيت الدين ففيها قصور بناها المعنيون والشهابيون اضحت اليوم قبلة انظار السياح . وفي البلدة «ساحة الميدان» الشهيرة ، وتعمل مديرية الآثار العامة على ترميم هذه الساحة ، وقد منعت ادخال اي تعديل عليها لتحتفظ بطابعها التاريخي العريق .

اما منطقة الجنوب ، فانها غنية بالاثارات ، لا سيما

مدينتي صيدا (صيدون) وصور .

تبعد صيدا مسافة ٤٥ كيلو مترا عن العاصمة اللبنانية . ويكفي هذه المدينة فخرا انه منها انطلق الفينيقيون يحملون الاحرف الابجدية الى العالم . وكانت سيدة البحار أيام الفينيقيين ، وحاضرة الفكر . ويرى فيها السائح خرائب قلعة صليبية ترقى الى القرن الثالث عشر ، وآثار قصر ملك فرنسا القديس لويس . وفي تلك الخرائب اقيمت مهرجانات الربيع التي اشتركت فيها فرق من سائر قضاء الجنوب ... وقد اجريت فيها مؤخرا حفريات كشفت عن آثار يعود عهدها الى الاسكندر المقدوني .

وبعد (صيدون) يتوجه السائح الى صور التي تبعد عنها ٤٧ كيلومترا . وصور كانت ملكة البحار في العصور القديمة . وتحتوي على عدة مدن متلاصقة تحمل السائح على الرجوع الى التاريخ الغابر : فعلى سطح الارض تقوم المدينة العربية ، وتتدرج تحتها المدينة البيزنطية ، فالرومانية ، فاليونانية ، واخيرا الفينيقية . وقد كشفت الحفريات مؤخرا عن قوس نصر كبير كان ينتصب فوق طريق مبلطة على جانبيها نواويس فخمة . وعلى هذه الطريق سار الاسكندر لفتح المدينة التي قاومته ببسالة في حصار استغرق سبعة أشهر . ولا ننسى ان صور قد قاومت من قبل الاشوريين مدة ثلاث عشرة سنة ، عندما ارادوا فتحها واخضاعها لسيطرتهم .

وهناك بعلبك ، لا بد ان يضعها السائح ببرنامجه عندما يصل لبنان . وبعلبك مشهورة بقلعتها الجبارة التي صمدت في وجه الاعاصير والحروب . وقد سكن مدينة بعلبك الفينيقيون والرومان والعرب . كما ان اسمها مشتق من اسم الاله الفينيقي «بعل» . وقد اقام الفينيقيون لهذا الاله في القلعة معبدا مكشوفا يقع في وسط الساحة السداسية الاضلاع . وتتألف القلعة من هياكل ثلاثة هي : هيكل جوبيتر وهيكل باخوس وهيكل فينوس .. آلهة ثلاثة كان يعبدها الرومان ... وفي هذه الهياكل تقام صيف كل عام — منذ ١٩٥٤ — **مهرجانات بعلبك الدولية ،** وهي تستقطب اشهر الجوقات الفنية في العالم ، الى جانب فرقة بعلبك الفولكلورية .

اما مصايف لبنان ففنية بمشاهدها الفاتنة . يؤمها المصطافون العرب وسكان الساحل من لبنان . ويندهش منها السائح اذ هي على مسافة كيلو مترات قليلة من بيروت . يمكنه ان يأخذ حماما بحريا ، ثم يتوجه في الحال الى مصيف يصله بعد ١٠ دقائق بالسيارة . وهذا ما لا يجده في اية بقعة في العالم ... ولعل اروع منظر يظل عالقا بمخيلة السائح هو منظر خليج جونيه ، عندما يقف السائح في حريصا ويتأمله . وقد اقيم فيه مؤخرا « مشروع التليفريك» السياحي ...

وبعد هذه لمحة سريعة عن بعض مواطن الجمال في لبنان التي تجذب السائح ، والتي تدل على انها غنية بآثاراتها ومناظرها البديعة .

الادب يبـاع بالكيلو

«الكتاب بليرتين.. نقي واختار .. شعر .. ادب .. فلسفة.. الله يعوض على الخسران.. مال مكسور ومفلس!»

هذه النداءات وامثالها تدق سمعك كلما مررت في شارع كبير من شوارع المدينة ، وكم استوقفني النداء ، وكم شدني الى ان اشهد المأساة،وكم فرض علي ان اشتري من كتب ، ما كان في مكنتي شراؤها او اقتناؤها لولا كساد سوقها ، ولولا انها اصبحت مما يعرض صباح مساء على ارصفة الشوارع وبين ارجل المارة .

انه لمريع ان نرى روائع الادب العالمي المترجم ،ونفائس الكتب العربية المعاد طبعها ، او الموضوعة حديثا قد تحولت اتلالا على العربات الخشبية وعلى ارصفة المدينة ، وكأنها من حشائش الارض ، مما يأكل الحيوان بفمه ، وليست مما يأكل الانسان بعقله وقلبه وسمعه وبصره .

وكم يشجيك ان كنت ممن يحترم الكلمة ، ويجل قيمتها حين تشهد زحمة الشباب والشابات في المكتبات الاجنبية والعربية باحثين منقبين عن الكتاب والمجلة مما يعني بشؤون الاثارة الجنسية ، حتى لكأنهم على ابواب امتحان يفترض عليهم تأديته بين ساعة وساعة ، انهم يبحثون عن الكلمة العارية ، والصورة الاكثر عريا ، عن الصورة الصارخة ، والكلمة الاشد اثارة وما تقوله عن الكتاب المكشوف ، والمجلة الخليعة ، تقوله عن الافلام السينمائية ، والبرامج التلفزيونية ، والاحاديث المنبثة والمتطايرة من افواه الخلعاء والمجان .

من المؤسف ان يباع الادب بالكيلو ، وان تباع الخلاعة بالقيراط ، ومن الاسف ايضا ودون فلسفة ، ان يغزو سقوط شبابنا وشاباتنا في امتحاناتهم العلمية ، ولا نلتفت الى الكتاب الذي يقراون ، والفيلم الذي يشهدون ، والى برامج التلفزيون التي تشدهم عشرات السنين الى الوراء ..

فماذا اعددنا لجيل الغد ، ماذا اعددنا لحبات قلوبنا ونحن ندفعهم عاما بعد عام الى مقاعد الدرس . ماذا اعدت لهم وزارة التربية من مناهج جديدة ، وكتب جديدة مما يتفق مع رقي العصر وحضارته ، وماذا اعدت الجامعات والكليات والمدارس النموذجية ، واكثرها قد ملأ الدنيا اعلانا عن جنته ، وعن اناقة غرفه ، وترتيب ممراته ، واكتظاظ حدائقه بالازهار والرياحين ، حتى لكأن التلميذ حين يدلف الى المدرسة انما يدلف الى منتزه ، او مطعم ، او خميلة وفاتهم ان يشيروا الى اقساط مدارسهم ومرتباتهم الخيالية ، والى تجارتهم التي بلغت ذروة التجارة في ارباحها واساليبها ...

ماذا اعدت هذه المدارس لطلابها من كتب ومناهج مما ينمي الروح الوطنية ، روح العلم والمعرفة ، مما يحملهم على النجاح ، يبدو انهم لم يفعلوا شيئا سوى انهم اشاعوا بين طلابهم الاتكال على المدرس الاضافي ، وتفهم الرقص الشعبي ، وقضاء الوقت على الشاطىء ، ومن ثم حسن المعاشرة !..

جريدة «الحياة» بيروت — **محمد قره علي**